روايات مصرية للجيب

سلسلة الروايات

Looloo
www.dvd4arab.com

28

حياة جديدة 2

إهداء

إلى روح الأستاذ والفنان الجميل إسماعيل دياب

وردة اضعها بكل الحب والعرفان على قبره

فهو صاحب الفكرة

ضمن افضال أخرى كثيرة علىّ وعلى غيرى

م . س .

تنويه

هذه الرواية وحدة قائمة بذاتها ، وفى نفس الوقت يمكن اعتبارها جزءًا ثانيًا من رواية (حياة جديدة) الصادرة فى سلسلة (سلة الروايات) ، العدد ٢١

يمكنك أن تبدأ فى قراءة هذه الرواية ، على أن تقرأ الجزء الأول لاحقًا ، أو يمكنك أن تقرأ الجزء الأول كبداية ، وتعود بعدها لقراءة هذا الجزء .. فى الحالتين يفضّل أن تقرأ الجزء الأول ، حتى لا تضيع منك تفاصيل ربما تكون مهمة من أجل اكتمال الصورة ..

م . س .

بُكائِيّة نوْرس وَحيد

(١)

أعرف أن الهاتف سوف يرن الآن ، وأن (نعمان) سوف يكون هو المتصل بالتأكيد ..

إن لم أكن قادرة بعد كل هذه السنوات على توقع كل نأمة تصدر منه ، وعلى انتظار كل فعل وتصور كل رد فعل ، فلا أقل من أن أصف زواجنا ـ رباطنا المقدس ـ بالفشل الذريع !

كلا .. لم يكن زواجنا فاشلاً بأى صورة .. لا أستطيع أن أدعى هذا ولو كذبًا .. زواجنا كان مشروعًا محسوبًا بالورقة والقلم ، وبمنتهى الدقة من حيث التكاليف والأرباح مع بعض الخسائر الإجبارية المتوقعة ..

يبدو أن وقت تقدم كشوف الحساب قد حان أخيرًا يا (نعمان) ، وكان من المفترض أن تتجاوز الأرباح الخسائر مما يتيح لنا تقاعدًا مريحًا من العمل .. ومن الزواج .. ومن الحياة نفسها فى النهاية ..

هذا ما هو مفترض ، أو هذا ما عشت أتمناه على الأقل !

تضع (أم محمود) الصينية أمامى بجوار سماعة الهاتف اللاسلكية التى سيعلو جرسها الآن فى أية لحظة ، وتمضى المرأة

السمينة ذات الوجه الطيب إلى شئون المنزل المعتادة ، بينما أرشف قهوتى منزوعة الكافيين فى جلستى اليومية الأثيرة أمام شاطئ البحيرة ، حيث يحلو لى أن أراقب الغروب ، وأن أتلذذ بمداعبة النسيم لتجاعيد وجهى وشعيرات رأسى الرمادية ، ثم أتراجع بظهرى إلى المقعد الخشبى ، بينما الحنين يرسم على وجهى استمتاعًا خفيًا ـ لا يخلو من استمراء لتعذيب الذات ـ بعبق الذكريات السابحة فى بحر الأثير ، و(بوسى) تتمسح بفرائها الناعم عند قدمى أسفل المائدة ..

كم سنة مرت على زواجنا ؟!

خمسون ؟! نصف قرن كامل ؟!

رباه ..

بالأمس .. بالأمس فقط .. كنت تلك الفتاة الصارمة الملامح ، العملية الطباع ، المفعمة بالحيوية وبالطموح وبالرغبة فى تغيير العالم ..

كنت جذوة لا تخمد ، يأججها الحماس والأحلام ..

واليوم ، عجوز أمشى بصعوبة وأتحرك بصعوبة وآكل بصعوبة وأنام بصعوبة ، أحمل تاريخى فوق كتفى وشيبى بين خصلات شعرى الرمادية ، وميراث ثقيل من الإنجازات والشهادات المؤطرة المعلقة على جدران المنزل والمكتب والعيادة المهجورة ..

تاريخ طويل من الأسفار والمؤتمرات والإنجازات والأبحاث العلمية ، التاريخ الذى يكفى لصناعة أسطورة ، بل أسطورتين تحمل إحداهما اسم الدكتورة (عصمت زين الدين) ؛ اسمى ..

وتحمل الأخرى اسم زوجها / زوجى الدكتور (نعمان زاهر) ..

أسطورة أو أسطورتان ، لا فارق كبير ، لن يستطيع أحد فصل أحدنا عن الآخر ..

فى النهاية أستطيع أن أدعى أننا عشنا معًا حياة واحدة ، لا حياتين منفصلتين ..

حياة واحدة ..

منذ التقينا فى أروقة الكلية ، طالبة فى السنة النهائية تحرص على تقدير الأولى كل عام ، وطالب يصغرها بعام واحد ، يترنح ترتيبه العلمى بين أقرانه فى نطاق العشرين الأوائل دائمًا ..

لم أخجل مرة واحدة طوال تاريخنا المشترك الممتد إلى نصف القرن معًا من إعلان هذه الحقيقة : إننى أكبر زوجى ورفيق حياتى بعام كامل .. أحد عشر شهرًا بالتحديد لهواة الدقة المفرطة .. ولم يكن الدكتور (نعمان) يجد غضاضة فى تصريحى بهذا على مسمع منه ، ولم يكن سبقى إياه سنيًّا أو أكاديميًّا أو وظيفيًّا بمجال للضغينة بيننا ، صحيح أن الهمسات قد دارت كطواحين الهواء ، حول سبب اختيارى لزوج يصغرنى سنًّا ومكانة ؛ بأنه نوع من إثبات شخصيتى القيادية المتسلطة التى لا تقبل بالمركز الثانى .

على الإطلاق ، لكنى لم ألق لهذه الهمسات بالا وواصلت طريقى بكل جد واجتهاد ..

كنت أتوقع سريان هذا النوع من التعليقات ـ وأكثر ـ من وراء ظهرى ، ولعلها فى النهاية تحمل نزرًا من الحقيقة التى لا أنكرها ؛ إذ أنّى لى بزوج يستطيع السيطرة على وعلى طموحى وأفكارى وتطلعاتى ، لدرجة أن (نعمان) نفسه ـ على هدوئه وإعجابه الظاهر بى ـ لطالما وصفنى بالمهرة الجامحة التى أعيت من يروضها ؟!

فى ظنى أن رجلا كهذا لم يكن قد ولد بعد ، ربما هو لم يولد بعد إلى الآن ..

ما زلت أذكر كل شىء إذ لا تحمل جيناتى تسلسلات الدكتور (ألزهايمز) طيب الله ثراه على ما يبدو ، ومازالت ذاكرتى تعرض الصور المتتابعة بوضوح تام كأنى أتابع شريطًا سينمائيًّا ..

لقد ضمن لى التفوق شهرة جامعية لا بأس بها منذ كنت طالبة فى السنة الأولى ، وضمنت لى شخصيتى القوية احترام الكبار وحسد الصغار ، ونظرات كثيرة فوق أعناق ملتوية تتابعنى منذ دخولى من البوابة مستقلة سيارتى السوداء (وأن تقود طالبة سيارة فى ذلك العهد الغابر من أواسط القرن العشرين لهُوَ بدعة فى حد ذاتها) ، إلى سيرى الثابت بين المدرجات والمعامل وأقسام الكلية والمستشفى الجامعى ، إلى مغادرتى فى آخر النهار ..

لم يكن غريبًا أن أظهر سائرة بحذاء أحد الأساتذة الكبار الذين ترتجف الأبدان لمجرد ذكر اسم أيهم ، ولم يكن غريبًا أن نتبادل حوارًا علميًا رصينًا حول نقطة اختلفتْ فى تحديد صحتها المراجع الطبية الشهيرة ، أو أن أسأل أحدهم حول جزئية ما فيقف للحظة شاردًا قبل أن يقول :

ـ لم أقرأ فى هذا الموضوع ، سأراجعه ثم نتناقش غدًا فى هذه النقطة ..

لحظتها كان زهو الانتصار يملؤنى ، وكنت أشعر بأنى ملكة متوجة على العالم كله ، بالذات عندما ينطق بها أحد العلماء الأجلاء الذين طبقت شهرتهم الآفاق أمام جمع الطلبة والطالبات بعد نهاية محاضرة أو درس عملى مثلا .. لا بأس بالطبع فى أن أسمعها منه على انفراد فى مكتبه أو فى طريق مغادرته أو فى أحد أروقة المستشفى ، لكن أمام جمهور يبدو للكلمات وقع مختلف ، فهو أحد أهدافى التى أفخر بتحقيقها حقيقة ..

ليس أن أكون الأولى فحسب ، ولكن أيضًا تحت دائرة الضوء ، دائمًا وأبدًا ومهما كلفنى ذلك ..

كانت الشائعات تطاردنى مع سيل من الغمزات وتنهيدات الحسرة والحسد ، ولم أكن ألقى بالا لأى من كل هذا ، رغم شعورى الممض بالوحدة طوال سنوات الدراسة ..

وحدة باردة بلا أصدقاء ولا صديقات .. اعتبرنى الآخرون منطقة محرمة خلقوا عنها الأساطير والتابوهات ، ونصبوا حولها أسلاكًا شائكة .. لم أكن أبخل على أحد يطلب العون أو المشورة لكنى لم أعرض بضاعتى الدراسية والعلمية بثمن بخس كما لم أعرض نفسى على أحد ، وهكذا كنت أعد نفسى لمستقبل واعد بالعنوسة وخال من الصديقات تمامًا إن استمرت أوضاعى الاجتماعية على ما هى عليه ، لولا أن اعترض (نعمان) طريقى يومًا بسبب إحدى تلك الشائعات ..

كان أحد تلك الأيام الحافلة التى تنتهى قبيل العصر ، وكنت متألقة خلال المحاضرة المتأخرة كعادتى فى تفاعلى مع أستاذ الجراحة الشهير الذى ظل يناقشنى طويلاً حول الأساليب الجراحية المتبعة فى استئصال الزائدة الدودية فى ذلك الوقت ، وكنت قد قضيت ليالى عديدة قبلها فى قراءة كل المراجع المتوفرة تحت يدى حول هذا الموضوع لكى أناقشه ندًّا لند ، كما هو الحال دائمًا معه ومع سواه ..

أذكر أننى بعد المحاضرة مباشرة كنت ماضية إلى سيارتى الواقفة وحدها تقريبًا فى مرآب المستشفى ، بعد أن خلا المكان من أغلب الطلاب والأساتذة فى هذا الوقت الميت ، أفكر فى محاضرات الأيام القادمة وكيف أن أمامى كمًّا رهيبًا من القراءات العلمية حتى لا يقل تألقى عما حدث اليوم .. كانت سهام النظرات المعتادة تلحق بى من وراء ظهرى فتصيبنى أو لا تصيبنى ، تلك السهام الحارقة التى وطّنت نفسى على تجاهلها والمضى قدمًا ..

قبل بلوغى السيارة سمعت من ينادينى من خلف ظهرى :

ـ دكتورة (عصمت) .. دكتورة (عصمت) ..

تعجبت ، فهى المرة الأولى التى يجهر فيها أحدهم بالنداء علىّ داخل الحرم الجامعى .. والتفت ، فقط ليزداد تعجبى ..

هو طالب كما تشير ملامحه الشابة ، لم يبلغ نهاية العقد الثانى بالكاد ، يرتدى قميصًا أبيض فوقه (بول أوفر) أزرق بلا كمين مثل (عبد الحليم حافظ) فى فيلم (الخطايا) الذى لم يكن قد ضرب صالات العرض بنجاحه الساحق بعد ، ويدهن شعره بزيت الفازلين لكى ينام على أحد جانبيه لامعًا كما تقضى أحدث صيحات تلك الأيام ، وكان يخف السير نحوى حتى توقف أمامى مادًا يده ببسمة منهكة :

ـ خفت ألا ألحق بك يا دكتورة !

نظرت إلى يده الممدودة نحوى وقلت دون أن صافحه :

ـ هل تعرفنى ؟!

هز كتفه وظلت يده ممدودة إذ قال ضاحكًا :

ـ وهل فى الكلية كلها من يجهل عبقريتك الفذة ؟!

كان سؤالا غبيًا بالفعل :

ـ أعنى .. هل أعرفك ؟!

قال دون أن يهبط بيده الممدودة فى أريحية :

ـ لا أعرف ، وإن كنت لا أظن .. أنا جديد هنا .. اسمى (نعمان) .. (نعمان زاهر) ، أحد طلاب السنة قبل النهائية ..

لم أجد بدًا من مصافحته بعد أن صمتَ يراقبنى شاهرًا كفه فى إصرار ، وعندما فعلتُ تابع :

ـ ربما تعرفين أبى .. الدكتور (زاهر نعمان) ..

سألته على الفور :

ـ أستاذ طب العيون ؟!

أجابنى باسمًا :

ـ هو بعينه ..

عدت أسأله :

ـ وكيف تكون جديدًا وفى نفس الوقت تدرس فى السنة قبل النهائية ؟!

ـ هذا سؤال ذكى .. لقد كنت أدرس الاقتصاد فى (لندن) طوال الثلاث سنوات الماضية !

ـ وعدت إلى هنا لتدرس فى السنة قبل النهائية مباشرة ؟!

ـ أثناء دراستى فى الخارج كنت مقيدًا هنا فى سجلات الكلية ، وكنت أحصل على ترتيب متقدم بين الأوائل رغم أنى لم أكن أدخل الامتحانات أصلاً ..

كان يتحدث فى استهانة عابثة ، ولم يكن ما يقوله جهرًا ليدهش أحدًا فى ذلك العصر المفعم بمراكز القوى العلنية والسرية ، وأحقية أبناء الأساتذة فى وراثة مراكز آبائهم العلمية بأى وسيلة شرعية أو جنائية .. السؤال هو : هل يدهش هذا أحدًا الآن رغم مرور كل هذه السنوات ؟!

ـ ولماذا لم تكمل دراستك هناك فى (لندن) ؟!

ـ مللتها ، بالإضافة إلى ضغط أبى المستمر الذى رضخت له فى النهاية ..

لم يكن انطباعى الأول عنه إيجابيًا ، ولو أن الانطباعات الأولى تدوم كما يقولون لما كنت جالسة الآن فى أرذل العمر أنتظر مكالمته الهاتفية على شاطئ البحيرة ..

قابل (نعمان) صمتى بنظرات تفحصتنى بعناية من أعلى إلى أسفل : شعرى المعقوص إلى الخلف ، نظارتى الطبية نصف السميكة أمام عينى الضيقتين ، أنفى المدبب ، فمى المطبق ، حقيبة الكتب والدفاتر والأدوات الطبية المتدلية من فوق كتفى ، ملابسى البسيطة المكونة من قميص أبيض فوق تنورة سوداء طويلة بما يكفى (لم تكن أى فتاة فى ذلك العصر لتجرؤ على التفكير فى ارتداء بنطال تحت أى مسمى) ، وأخيرًا المعطف الأبيض الذى أحمله فوق ذراعى الأخرى من أجل الدروس العملية ..

ـ غريب ..

قالها وبسمته تشرق أكثر فاستفزنى للسؤال باقتضاب مماثل :

ـ ماذا ؟!

ـ إنك ليس كما يقولون عنك ، فها أنت ذى تحدثيننى كأى شخص طبيعى ..

لم أقاوم عبارة ساخرة ألحت علىّ تصاحبها بسمة جانبية :

ـ ماذا أخبروك ؟! أنك ستتحدث إلى شقيقة (ريا) و(سكينة) ؟!

ضحك عاليًا ، وقال :

ـ ليس لهذه الدرجة ، لكن .. دعك مما يقولونه ، وإن دفعنى لاقتحامك هكذا سؤال يتعلق بأقاويل من التى تتناثر حولك ..

ـ إنك تجعلنى أتيه فخرًا .. من الرائع أن يصبح المرء مادة للأقاويل المتناثرة ..

تجاهل ما فى قولى من استنكار ، وسألنى محدقًا فى عينى مباشرة :

ـ هل أنت حقًّا ابنة أخت عميد الكلية ؟!

هل كانت هذه هى اللحظة الأولى التى ألاحظ فيها أن عينيه خضراوان ؟!

ـ ماذا ؟!

أعاد السؤال فأجبته بآخر :

ـ وما الذى يدفعك أو يدفع أى شخص إلى افتراض كهذا ؟!

أخرج علبة السجائر من جيبه ، وهو يقول :

ـ الجدل بين الطلبة محتدم حول انتسابك بصلة قرابة لأى من أعضاء هيئة التدريس ، وبالبحث فى شجرة عائلة السيد عميد الكلية وجدوا أن زوج أخته يحمل اسم (زين الدين) فى موقع ما غير محدد من اسمه الثلاثى ، وهكذا احتدم الرهان بين فريقين يرى أحدهما أنك ابنة شقيقة العميد بينما يرى الآخر أن القرابة باطلة لأن (زين الدين) هو اسمك الثانى رأسًا .. إننى أحد المراهنين من الفريق الثانى ، وفى كل الحالات كان يجب أن يتطوع أحد بقطع الشك ونيل اليقين .. هذا المتطوع هو أنا بكل تواضع ..

هكذا ...

بلغت الشائعات هذا المدى الجارح إذن ..

لا أحد بوسعه أن يتخيل حصولى على المركز الأول طوال هذه الأعوام الدراسية دون أن تربطنى أدنى صلة قرابة بأحد المراكز القيادية فى الكلية ..

أخرج (نعمان) إحدى سجائره وبدأ فى تدخينها بطريقته المميزة التى لم تتغير طوال خمسين عامًا : يقرب العلبة من فمه ويلتقط السيجارة من داخلها بشفتيه ، وعندما يشعلها ويأخذ نفسه الأول يضعها بين إصبعيه الخنصر والبنصر ، وينفث عامودًا رأسيًا

من الدخان الأبيض ينم عن مدى اتساع رئتيه ، وعن انغماسه العميق فى نشوة النيكوتين ..

صمتّ أراقب طقوس تدخينه المميزة ، حتى قاطعنى :

ـ الآن ماذا ؟!

سألته فى جمود :

ـ تريد أن تعرف ؟!

ـ إن كان هذا لا يضايقك ..

ـ كلا ، لست أمتّ إلى أحد هنا بأى صلة قربى ..

وتركته على الفور ، ليدوى خلف ظهرى صياح النصر وهرولة الفتى نحو المتطلعين إلى وقفتنا من بعيد ، حاملاً إليهم الخبر اليقين ؛ الذى لم تطل مصداقيته طويلاً ..

سرعان ما انكشفت الحقيقة ، وعرف الجميع أنى كنت أكذب ..

نعم ، كنت ابنة شقيقة عميد الكلية فعلا ، لكنى كنت أمقت هذه الحقيقة بشدة !

أمقتها لأنها تسحب منى كدى واجتهادى وسهر الليالى وتلخّص تفوقى وحصولى الدائم على المركز الأول فى تهمة أنكرها وشرف لا أريد أن أدعيه : إننى قريبة الدكتور فلان الفلانى ..

لم تكن أمى طبيبة ، ولم يكن أبى طبيبًا ، ولم تكن تربطنى علاقة قوية بخالى العميد ؛ لدرجة أنى كنت أتحاشى الظهور معه

سواء فى داخل الحرم الجامعى أو خارجه ، لكن الأوغاد فعلوها ونبشوا فى كل شىء حتى يقللوا من شأن نجاحى فى اقتناص المركز الأول ..

هكذا يتساوى الجميع فى بلاد تنعدم فيها معايير المساواة ، وأجد نفسى جنبًا إلى جنب فى قائمة الأوائل مع فتى لم يكن هنا ولم يدخل الامتحان ولم يتعب نفسه أنملة فى استذكار سطر واحد ، لمجرد أن والده واحد من ديناصورات مراكز القوى ..

لم يكن من الممكن إخفاء هذه الحقيقة إلى الأبد على أية حال ، خاصة أننى عينت بعد تخرجى وفترة الامتياز على الفور معيدة فى الكلية ، وكان احتكاكى بخالى العميد حتميًا ، غير أنى خرجت من هذا الموقف بنصر ما على الأقل ..

لقد تعرفت على (نعمان) ، وانفتح بيننا باب لم يُغلق حتى اليوم ..

حتى اللحظة ..

كنا نتقابل بعدها تحت الشمس وأمام الجميع فى كافيتيريا الكلية ، وبأمومة أجهل مصدرها كنت أنغمس فى شرح كل الدروس بإخلاص عجيب ، وأمضى أوقاتًا طويلة فى كتابة ملخصات ليذاكرها وتقارير دراسية يقدمها للأساتذة مكتوبة بخطى وعليها اسمه ، وهو ما كفل له النجاح بترتيب متقدم للغاية فى سنة التخرج ، وما كفل لى علاقة ذات مستوى أعلى به ..

عندما سحب (نعمان) سيجارته من جيب معطفه الأبيض فى منتصف فترة الامتياز لينفث دخانها فى عامود من الهواء الرأسى ، كنت موقنة أن عبارته التالية سوف تكون السؤال المنتظر :

ـ (عصمت) ، هل توافقين على الزواج منى ؟

بالطبع وافقت ..

إن الباب الذى انفتح بيننا لن ينغلق حتى نهاية العمر ، تلك النهاية التى اقتربت حثيثًا الآن بحكم السن على الأقل ، لكن هذا لم يكن ما أفكر فيه وقتها بطبيعة الحال ..

خطبتنا لم تكن أكثر من حفل عائلى بسيط اشتمل على لفيف من خيرة أطباء البلاد .. حفل أقرب إلى افتتاح مؤتمر طبى تدوى فيه المصطلحات اللاتينية وتحتدم فيه النقاشات الجانبية حول نقاط علمية جدلية ، وفى المنتصف أنا بثوب سماوى بسيط أحيى الحضور ، وفى الشرفة (نعمان) وحيدًا غارقًا فى تأملاته وفى نفث أعمدة الدخان بينما السيجارة تلو الأخرى تهتز بين خنصره وبنصره ..

وحدته هى عالمه الخاص الذى فشلت فى اختراقه كل هذه السنوات .. للحق أنى لم أحاول ..

كنت أحترم صمته وأنشغل فى مهامى التى لا تنتهى حتى يقرر هو الخروج من دائرة العزلة ، فيخرج ، ولم أكن أشغل نفسى بنوع الأفكار التى تراوده فى شروده المتكرر ..

ما دام سيخرج فى النهاية فهو لم يصب بالجنون بعد ، وهو ما سيكفل لنا الاستمرار .. ما هو الأهم من هذا ؟!

تحدد موعد الزواج بعد الخطبة بشهور قليلة ، وبمجرد إنهاء (نعمان) لفترة امتيازه تزوجنا فى حفل عائلى آخر أكثر بساطة وأقل حضورًا ، ففى فجر يومها كان علينا أن نحمل حقائبنا ونتجه رأسًا إلى المطار ، لتنطلق بنا الطائرة إلى (كاليفورنيا) حيث سأقضى بضع سنوات فى تحضير الماجستير والدكتوراه : بعثة علمية على حساب الدولة أعود منها وقد أضيف إلى اسمى حرف الدال عن استحقاق وجدارة ..

(نعمان) ؟!

لقد سجل لدرجته العلمية على نفقته الخاصة هناك لكنه حصل عليها بشق الأنفس ، كان الأمر أكثر صعوبة علىّ أنا إذ كنت مضطرة لممارسة عمل اثنين ، كنت أذاكر دروسى ودروسه ، أبحث عن المادة العلمية لرسالتى ورسالته ، أسقيه الكتب بالملعقة كطفل عنيد لا يكترث لأمره ، يكفيه شروده وسجائره ومشاهدة السينما وقراءة القصص المصورة والنوم حتى ساعة متأخرة : طفل عنيد بكل معنى الكلمة !

الذى أجبرنى على كل ذلك ليس مجرد حبى له (لا أجرؤ بعد كل هذه السنوات على تسمية ما بيننا بالحب طبقًا لما يكتبه الروائيون وما يصنعه السينمائيون وما يشعر به الرومانسيون) بل كان السبب هو حبى (لى) لو جاز التعبير ..

ببساطة أكثر كان يتوجب أن أكون زوجة لرجل ناجح ، وحتى لو كان (نعمان) زاهدًا فى النجاح فهذا ليس عذرًا كافيًا لكى يفشل ، على أن أصعد به فوق كتفى ما دمت قد قبلت به زوجًا وشريك حياة .. ومادامت الأقدار قد ألقت به فى طريقى كاختيار وحيد ؛ فعلى أن أكون قوية بما يكفى لإثبات قدرتى على صناعة حياة رجل وامرأة معًا ، وعلى صهرهما فى بوتقة واحدة تكون بمثابة مرآة لامعة تعكس نجاحًا مستقرًا مهما كلفنى ذلك من مشقة ..

مضت سنوات البعثة ثقيلة فى (كاليفورنيا) ، أنا أتمزق بين مجهود العمل والاستذكار وتحضير دراساتى ودراساته بالإضافة لمجهود تدبير شئون المعيشة العنيف ، وهو يمارس كل أنواع النزوات الممكنة وغير الممكنة ، يدخن السيجار والغليون ثم يسأم ، يحاول تعلم العزف على آلة موسيقية ثم يسأم ، يلعب الشطرنج مع نفسه ويتعلم خططًا جديدة ويقرأ كتب المحترفين فى اللعبة ثم يسأم ، يحاول رسم لوحات تجريدية بلا معنى ثم يسأم ، يشرع فى كتابة مذكراته ويكتب أكثر من ألف صفحة فى رواية ثم يسأم ، يمزق الأوراق واللوحات ويحطم الآلة الموسيقية ويلقى بعلبة السجائر من الطابق الأخير ، ثم يشترى واحدة جديدة ويدخن من جديد !

الغريب أنه كان يفعل كل شىء فى هدوء قاتل ، يتحدث قليلا ، يبدو كمشروع قاتل تسلسلى ناجح فى بعض الأحيان ، وكنت أنا

مزوّرة عنه فى الغالب ، مشغولة حتى النخاع فى أبحاثى وكتبى ، وأبحاثه وكتبه ..

ترى ، من كان يتعين عليه منا أن يحتمل الآخر أكثر؟

كنت أقول لنفسى : ليفعل ما يريد ، مادام بعيدًا عن النزوات النسائية فليشغل نفسه فيما يحب ، وحتى عندما اكتشفت انغماسه فى نزوة من النوع الأخير لم أشعر بغضب ، لم أشعر باستياء ، لم أشعر بغيرة ، وتعاملت مع الأمر ببساطة جعلتنى أشك فى أنوثتى لوهلة ، قبل أن ألقى بصورته مع (جيسيكا) خلف ظهرى وأعود لممارسة تفاصيل حياتى الصغيرة ..

مرت نزوته هذه سريعًا كما مرت كل النزوات الأخرى ، وتناسلت النزوات وتكررت مع (جيسيكا) نفسها ومع أخريات أمريكيات وطالبات من جميع الجنسيات الأخرى ، ولم أعطه أو أعطهن أنا اهتمامًا حقيقيًا ، فسنوات البعثة كانت قد قاربت على الانتهاء ، وكان (نعمان) قد وجد ضالته أخيرًا فى هواية استمرت معه طويلاً هذه المرة ..

تربية القطط !

لم ننجب حتى الآن لأسباب قد يكون مردها إلىّ أو إليه ، إذ لم ينفتح بيننا هذا الموضوع مرة واحدة طوال خمسين عامًا ، وبالتالى لم تتح لنا فرصة استكشاف السبب الحقيقى طبيًا أو نفسيًا ، ولم أول اهتمامًا كبيرًا للأمر فى خضم حرصى على

الدراسة والتفوق المعتاد فى أبعد بلاد العالم ، وعندما كان الأمر يجول بخاطرى كنت أهز كتفى وأقول لنفسى إن هذا قد يعود لحسن الحظ ، فكيف سأتمكن من رعاية طفل فى حين أننى من تقوم بكل المسئوليات وحدها ؟! وكيف يمكننى المحافظة على تفوقى وتوسيع دائرة علاقاتى الأكاديمية وفى نفس الوقت إتمام دراسة (نعمان) المتعطلة ، بينما هناك طفل يصرخ طالبًا الرضاع أو تغيير الكافولة المتسخة ؟! بل كيف سأنجح فى تربية طفلين أحدهما حقيقى والآخر .. (نعمان) ؟!

كان الوضع مثاليًا بالنسبة لى ، أما (نعمان) فهو لم يصرح أبدًا برغبته فى الإنجاب ، ولم أفسر نزواته النسائية يومًا على أنها بحث عن الذرية ، فقد كنت واثقة أنه لن يتورط أبدًا فى علاقة زواج ، بل وكنت أحدد بينى وبين نفسى الموعد الذى سينهى فيه علاقة ما ، وأراهن على الموعد إمعانًا فى الثقة ، والغريب أننى نادرًا ما خسرت رهانًا من هذا النوع ، أكاد أجزم أنى لم أخسر رهانًا واحدًا لكن من أين بذاكرة جبارة تحفظ كل الحوادث بحذافيرها ؟!

هل كانت هوايته الجديدة ـــ التى أثبتت كونها ليست محض نزوة ـ فى تربية القطط عبارة عن محاولة أخرى للتعويض عن عدم وجود أطفال فى حياتنا ؟!

ليتنى أعرف ..

كنت أراقبه يداعب القطط ويهتم بنظافتها ويضع لها الطعام والحليب فيقشعر بدنى دونما سبب واضح ، وفى إحدى المرات

التى اندمج فيها فى مداعبة قطته الأولى (بيلا) إلى حد أن أخذ يتقافز فوق الأرض ويضحك بصوت عال ويأخذها بين يديه رافعًا إياها فى الهواء كمن يدلل طفلا صغيرًا ، فى هذه المرة بالذات انهارت مقاومتى وسقطت كل حيلى الدفاعية ، فلم أشعر بنفسى إلا وأنا أغلق باب الحمام من الداخل ، ثم ..

أجهش ببكاء عنيف اهتززت له فى قوة كاسحة ..

مسحت دموعى ونظرت إلى نفسى فى المرآة ، نهران من الدمع المالح على وجنتى ينبعان من عينين حمراوين ، ويومها رأيت شعرتى البيضاء الأولى رغم كونى فى منتصف الثلاثينيات ليس إلا !

لكن ...

لأن النسيان نعمتنا الكبرى يمضى كل شىء ، وتمضى الأيام حتى نعود إلى (القاهرة) أخيرًا ..

المرة الوحيدة التى رأيت (نعمان) ثائرًا فيها كانت عندما أصر ضابط الجوازات المصرى فى المطار على أخذ (بيلا) ليضعها فى الحجر الصحى ..

ثورته العارمة أشعرتنى باكتئاب طويل ، ولم يرتح (نعمان) حتى أخرج (بيلا) وقطة أخرى مولودة حديثا أصر على شرائها بثمن باهظ من داخل الحجر الصحى ، وأعادهما إلى المنزل بعد أيام لم يذق فيها للنوم طعمًا ، ولا أنا ..

عدت لممارسة عملى كأصغر أستاذ مساعد فى الكلية ، وافتتح (نعمان) عيادة طبية نادرًا ما ذهب إليها ، وكنت مصرة على استمرارها مفتوحة عن طريق استئجار أطباء صغار لمعاينة المرضى فيها ، وأفسر أمام الجميع غياب (نعمان) عنها بسفره الدائم لحضور مؤتمر فى الخارج ، أو بانهماكه فى تحضير بحث علمى جديد يلتهم أغلب وقته ، أو لأسباب أخرى لم ينضب معين اختلاقها أبدًا ..

لا مشكلة فى أن الزبائن قلة ، ولا يهم أن الأطباء الصغار يلتهمون دخل العيادة بالكامل شرعًا أو زورًا ، لدرجة أنى كنت أدفع مصاريف الكهرباء والمياه من جيبى الشخصى آخر الشهر ، فقط كى تظل العيادة مفتوحة ، وكى تظل اللافتة التى تحمل اسمه مضاءة بالفلورسنت ..

مضت سنوات قليلة حتى ترقيت إلى درجة الأستاذية ، وحتى صعد خالى الذى كان عميد الكلية إلى منصب وزارى هام ، وكان صعوده هذا هو الذى غيّر مجرى حياتى ، وهو السبب فى وجودى فى هذا المكان الصغير الهادئ ، الذى أنتظر فيه مكالمة (نعمان) الآن ..

بعض الحوادث أذكرها بوضوح ضوء النهار .. وهل يمكن أن ننسى نقاط التحول المفصلية فى حيواتنا القصيرة ؟!

جاءت سيارة الوزارة لتقلنى من الجامعة دون أن أفهم لذلك سببًا فى البداية ، إنها أوامر سيادة الوزير كما أخبرونى ، وفى

الطريق أعيانى التفكير فى سبب الاستدعاء الفورى هـذا ، وقررت فى النهاية أن أريح نفسى وأن أتوقف عن التفكير ، أصـدرت ألـف قرار من هذا النوع لكنى فشلت فى تنفيذ تسعمائة وتسـع وتسـعين منها ، وفى المرة الألف كنت أجلس أمام خالى الوزير شخصيًا ..

ـ ليس هناك مـن يمكننـى الوثـوق فـى كفاءتـه أكثر منـك للاضطلاع بمهمة صعبة كهذه يا عزيزتى (عصمت) ..

كان خالى يتنفس بصعوبة وينطق الكلمات بحنجرة مشروخة ، فهو قد تجاوز الخامسة والثمانين ومع هذا يجلس علـى قمـة هرم وزارى هام فى بلاد مصابة بتصلب الشرايين ، ويطلب منى كشـابة (فى الأربعين) أن أضطلع بمهمة صعبة لا أعرف عنها شيئًا ..

ـ أتمنى أن أكون عند حسن ظنك دائمًا يا دكتور !

ألقى نحوى بملف متخم بالأوراق :

ـ لدينا مشروع لإنشاء كلية طب فى إحدى الجامعـات الإقليميـة ، ولا يوجد من هو أكفأ منك ليقـوم بـه .. لقد رشـحتك علـى مسئوليتى الخاصة رغم ما فى ذلك مـن شـبهة لاستغلال صلـة القرابـة التـى بيننا .. بالمناسبة ، كيف حال والدتك الآن ؟!

تجاوزت السؤال ، فوالدتـى التـى هـى شـقيقته مـاتت منـذ سنة تقريبًا وهو عاجز عن تذكر ذلك على ما يبدو !!

خرجت من مكتبه وانغمست فى تنفيذ المشروع ثلاث سنوات كاملـة ، حتى رأى النور أخيرًا ، وجلست فوق مقعد العميدة : أصغر عميـدة

لكلية طـب فـى الشرق الأوسط ، وبانتخابات حرة بين أعضاء هيئـة التدريس قبل أن يتدخل الحرس الجامعى بأنفه البغيض فى تنصيب أكثر من لا يليق على المقعد المقدس هذه الأيام ..

(نعمان) ؟!

لقد انتقل بقطته وسجائره معى إلى هذه المدينة نصف الساحلية الجميلة ، (بيلا) ماتت وانصب اهتمامه علـى القطـة الأصغر (لولـى) ، معدل استهلاكه للسجائر أصبح بشعًا ، خاصة بعد أن عينته فى منصب وكيل الكلية لشئون التعليم والطلاب ، حتى يكون مكتبـه بجوار مكتبى ، وحتى يتسنى لى الإشراف الكامل على عمله ..

بالأحرى ممارسته كاملا نيابة عنه !

كانت الكلية الجديدة هـى ابنتـى التـى لـم أرزق بهـا ، والتـى لـم تنزلق من رحمى ..

وضعتُ فيها كل جهدى وعلمى وسنين خبرتى وطموحى وكبتـى وعجزى ، أبرمـت اتفاقيـات تعـاون مع جامعـات أوروبية وأمريكية واقتبست مناهج التعليم المتطـور والأسـاليب الحديثـة مـن هنـاك ، والتى تناقضت مع الأنظمة البالية التى تطبقها كل الكليات الأخـرى هنـا ، فكـان الاصطـدام مـع أسـاطين المجتمـع العلمـى والمافيـا الأكاديمية العلنية والسرية حتميًا ..

نشـبت عشـرات المعـارك بينـى وبيـن عمـداء الكليـات الأخـرى وعماليق نقابة الأطباء وأحفوريات وزارة التعليم العالى نفسها بعد

أن ترك خالى كرسيه الوزارى إلى قبره بالطبع ، لدرجة أن هدد بعضهم بعدم الاعتراف بخريجى كليتى كأطباء لأنهم لا يتلقون تعليمًا طبيًّا سليمًا ، وكانت معركة ضروسًا خضتها بحماس على صفحات الجرائد وفى وسائل الإعلام لإثبات أن التغيير لا يعنى بالضرورة درجة أدنى على سلم التطور التعليمى ، وإنما قد يعنى درجة أعلى من منظور آخر ..

وخرجت منتصرة ..

كان النظام التعليمى الذى وضعته فريدًا من نوعه فعلا ، ينبذ الدروس الخاصة والمذكرات المطبوعة والكتب المقتبسة بالنص من مصادر أجنبية عن طريق نصوص صريحة فى اللائحة المنظمة للعمل الأكاديمى والإدارى ، ويجعل من الطالب محورًا للعملية التعليمية لا الأستاذ ؛ مما ينزع عن الأخير سلطاته اللامحدودة التى يساء استغلالها فى أغلب الأحايين ، ويعطى فرصة حقيقية أمام المجتهد للتفوق بينما يضرب فى مقتل نظرية مراكز القوى التى استشرت كأورام سرطانية فى أكباد جامعاتنا ..

أخرجت الجامعة أجيالا حقيقية رفيعة المستوى يشهد ببراعتها الأخصائيون قبل المرضى ، والقاصى قبل الدانى ، أما قانون الطبيعة والحفاظ على النوع فهو ما جعل الفاسدين يتوجسون خيفة من القضاء عليهم ، وكشف ما سترته سنوات الإستبداد واستغلال السلطة والنفوذ ، وجعلتهم غريزة البقاء يتربصون بى فى حذر ، إلى أن خرجتُ من منصب العمادة بعد سنوات وسنوات تاركة خلفى صرحًا طبيًّا أكاديميًّا عملاقًا ، وبالطبع خرج معى

(نعمان) فى ظروف نفسية سيئة نظرًا لموت عزيزته القطة الثانية (لولى) ، ليجىء الدور على (بوسى) التى تعبث بقدمى الآن فى دلال ، وقد اشتراها بثمن باهظ هى الأخرى عبر سمسار حيوانات أليفة نصاب ، وأخذ يشرح لى فى حماس الكثير عن أصالة نسلها دون أن أعطيه أذنًا مصغية ..

كان الأوان قد آن أخيرًا كى أستريح ..

بعد خمسين عامًا من الصراعات والمبارزات والعمل المتواصل وتحمل المسئولية الفردية آن لى أن ألتقط أنفاسى ، وكانت الفرصة سانحة أيضًا أمام (نعمان) لكى يمارس نزوات أخرى على مشارف السبعين ، ولكى ينعم بصحبة قطته وشراهة تدخينه لأصناف جديدة من السجائر ، لكن القدر وقف له ـ ولى بالتبعية ـ بالمرصاد ، فالسجائر قد جلبت علينا بعد نصف قرن من الإدمان ما لم نكن ننتظره رغم أنه كان أمامنا طوال الوقت على صفحات الكتب الطبية الضخمة ..

سرطان الرئة ..

آلام مبرحة فى الصدر ، ضيق فى التنفس ، تعرق ليلى ، أرق طويل ، هزال عام ، بصاق دموى ، وكان التشخيص سهلا عبر الأشعة ومؤكدًا عبر العينة النسيجية ..

(نعمان) يعانى من سرطان الرئة ..

شهور ونحن فى قلب دوامة عنيفة من العلاجات الكيماوية والإشعاعية والجراحات البسيطة والعميقة ، أنا التى تضطلع بكل شيء كالمعتاد ، لا أكاد أكتشف علبة سجائر مخبأة تحت الوسادة حتى أخفيها ، ولا يكاد (نعمان) يكتشف اختفاءها حتى يخرج غيرها من (القاروصة) التى يخفيها تحت السرير نفسه ، وهكذا تنتهى دائرة القط والفأر فقط لتبدأ من جديد ..

كان (نعمان) يذوى ببطء كشجرة عجوز ينخر فى جذعها سوس السرطان ، وكنت بجواره ..

لأول مرة أشعر كم هو شاسع ذلك التنائى بيننا ، ولأول مرة أتمنى لو أننا كنا أقرب ، بالأحرى أبعد قليلا (!) ..

لو أن الحياة الواحدة التى عشناها ككائنٍ واحد كانت حياتين منفصلتين ، تتداخلان أحيانًا وتنفصلان أحيانًا .. هذه هى الحياة الحقيقية التى كنا نستحقها ، لكننا أفسدناها بحماقة احترافية ، وليس لأى منا أن يتنصل من مسئوليته ، لا أنا ولا هو ..

كل العلاجات لا تفلح فى القضاء على أصل الداء ، والكتب الطبية صريحة فى هذا الصدد : سرطان الرئة من أكثر السرطانات توحشًا إن لم يكن أكثرها على الإطلاق ، فرص النجاة محدودة إن لم تكن معدومة ، فترة البقاء المتوقعة بعد اكتشاف الداء لا تتجاوز السنتين إن لم تكن ستة أشهر ، وهكذا كنت أحاول التعايش مع فكرة اقتراب النهاية إلى حد الملامسة ..

ولا أزال ..

الغريب أن المرض ، الألم ، الاقتراب من الموت ، أو أى تعبير مشابه هو الذى دفع (نعمان) ليتخذ أول قرار فى حياته حسبما أذكر ..

منذ أسابيع قليلة أتانى فى جلستى الوحيدة ساعة غروب الشمس ، العادة التى أدمنتها عبر سنوات طويلة تبدأ من (كاليفورنيا) ، وتنتهى هنا الآن فى شرفة المنزل المطل على البحيرة ، آخر ما تبقى لنا فى هذه المدينة التى شهدت ميلاد ابنة وحيدة لى لم أرزق بها ولم تنزلق من رحمى ، قبل أن يخطفها قطاع الطرق وأبناء الليل على مرأى منى ومسمع ..

وعجز أليم ..

أتانى (نعمان) وأنا جالسة أحتسى القهوة منزوعة الكافيين ، وأراقب النوارس التى تحط فى سرعة لتصطاد قوتها السمكى اليومى ، وخرج صوته منهكًا :

ـ هناك أمل ..

التفتت إليه فى دهشة ذكرتنى بلقائنا الأول ، وحاولت التغلب على رعشة يدى واختلاج وجهى :

ـ حقًا ؟!

سعاله الذى يخرج من أعماق روحه ، ثم :

ـ أجل .. الدكتور (خالد) يقول إن هناك أمل فى عملية جراحية يجريها جراح متخصص فى (جنيف) .. ستكون مكلفة قليلا ولكن ...

الدكتور (خالد) هو واحد من الأجيال التى خرجت من كليتى ، أذكره جيدًا منذ كان طالبًا حتى حصوله على الدكتوراه فى جراحة الأعصاب ، وهو لا يفتأ يزورنا باستمرار بعد خروجنا من كرسى المنصب على عكس الكثيرين ..

قاطعته على الفور :

ـ جهز حقيبتك إذن ..

ـ لكن ..

ـ لا نقاش ..

ـ ألن تأتى معى ؟!

ـ ومن سيرعى (بوسى) فى غيابك ؟!

كانت حجة مقنعة ، لذا سافر وتركنى أبحث عن سبب حقيقى لعدم ذهابى معه ، دون أن أجد واحدًا حتى هذه اللحظة ..

حتى هذه اللحظة التى أجلس فيها بانتظار مكالمته اليومية فى نفس الموعد ..

الغروب والقهوة والنوارس التى تلقط أسماكها بمناقيرها ، حتى يرن جرس الهاتف ، الرنة الطويلة المميزة للمكالمات الدولية ..

أقرب السماعة من أذنى وأضغط زر Talk ، أستمع قليلا إلى الصمت على الطرف الآخر ، قبل أن أقول مغالبة دمعة تحاول

الفرار دون جدوى ، منذ فرت آخر شقيقاتها عندما حبست نفسى فى دورة المياه قبل سنين بعيييييييدة :

ـ كيف حالك الآن يا (نعمان) ؟!

سعاله الذى يمزق روحه ـ وروحى .. روحانا ـ إجابة كافية ، ثم صوته الواهن :

ـ لا أدرى ، الطبيب مازال يؤكد أن هناك أملاً ..

الصمت من جهتى ، والدمعة لا تجد مفرًا ..

ـ الممرضة الألمانية الجميلة أيضًا تؤكد نفس الأمر ، ولأنها جميلة فأنا أصدقها طبعًا رغم أنى فى الألمانية أجهل من دابة كما تعلمين ..

أبتسمُ رغم سواد الموقف :

ـ كف عن هذا يا (نعمان) ، عار عليك فى سنك هذا ..

ـ سأراك ثانية يا (عصمت) .. سنتقابل مرة أخرى ، لاتقلقى ..

يقولها بثقة لا أدرى من أين يستمدها ، بينما أغلق أنا السماعة كأنى أهرب ..

سأقول له فيما بعد أن الخط قد انقطع من تلقاء نفسه ، ولن أخبره أبدًا بأمر تلك الدمعة التى نجحت فى الفرار ، بعد كل هذه السنين ..

من تلقاء نفسها ..

* * *

(٢)

غدًا يوم آخر ، هكذا علمتنى الحياة ..

صحوت من النوم باكرًا جدًّا كعادتى ، بمزاج متعكر كسطح البحيرة التى يطل عليها المنزل بعد عاصفة عاتية ، على غير عادتى ..

نظرت فى المرآة ليطالعنى وجه الحيزبون الشمطاء التى هى أنا ، بعينين منتفختين وشعر قطنى أبيض هائش وتجاعيد تأكل روحى أكلا .. صرخت أنادى (أم محمود) فأتت مهرولة بقدها السمين ، طلبتُ منها أن تساعدنى فى النهوض وارتداء ملابسى وأن تعد لى قهوتى الصباحية المرّة ، ثم جلستُ فى الصالة أمام التلفاز المفتوح على إحدى الفضائيات حيث تغنى إحدى الفتيات المائعات أغنية شبابية إيقاعاتها راقصة ..

أخبارك إيه .. حبيبى ؟!

طمنى عليك .. حبيبى ..

واحشنى عنك .. حبيبى ..

أخبارك إيه ؟!

كلمات ركيكة ولحن مبتذل وفتاة تتاجر بجمالها ، أى تردٍ فى هوة سحيقة بلغته فنون هذه الأيام ؟!

لن أفهم مزاج هذا الجيل أبدًا ..

وضعت (أم محمود) القهوة أمامى ولم تنصرف إلى أمورها المنزلية كعادتها ..

رشفتُ من القهوة المرة ، ثم نظرتُ إليها :

ـ ماذا هناك يا امرأة ؟!

سألتُها فى جفاء .. لو أنها تريد أن تطلب منى أى شىء فهو ليس الوقت المناسب على الإطلاق ..

ـ سلامتك يا دكتورة ..

تقولها واضعة كفًّا فوق آخر على سرتها وعيناها ساقطتان فى الأرض ، ثم تنطلق :

ـ خدمة بسيطة فقط ..

على الإطلاق !

ـ ابن أختى مريض عندكم فى المستشفى الجامعى و ... زوجها معدم ، وكانت تسألنى إن كان فى الإمكان أن يتم علاجه على نفقة الدولة ؟!

على الإطلاق يا (أم محمود) ..

وضعتُ الفنجان فى طبقه الفخارى بيد مهتزة غضبًا وانفعالاً ، قبل أن أهتف فيها :

ـ وهل أخبروك أننى مندوبة الدولة لعلاج الفقراء ؟!

ذهلت المرأة البسيطة التى لم تتوقع ردة فعلى ، ولم تفهم تقلباتى رغم عِشرة سنين من الخدمة المنزلية بكفاءة أعترف بها :

ـ العفو يا دكتورة ، ولكن ...

لم تجد ما تتم عبارتها ولابد أنها فكرت فى الانسحاب الاستراتيجى ، لكن كلماتى انطلقت فيها كطلقات مدفع آلى بين يدى مخبول :

ـ ليقدم أوراقه إلى الجهاز الإدارى فى المستشفى كأى مواطن عادى ، فقد عشت حياتى كلها أمقت استغلال السلطات وأحارب الفساد وحدى .. وحدى تمامًا .. هل تفهمين يا امرأة ؟!

لم يبد أنها استوعبت حرفًا مما أقول ، لكنها هزت عنقها السمين وهتفت :

ـ طبعًا يا دكتورة .. آسفة جدًا ..

وانسحبتْ استراتيجيًا ..

تركتنى أزفر بعمق ، وأحاول إيجاد سبب معقول لمزاجى المعتل ، الذى زاد من اعتلاله أن لحن الأغنية البغيضة المعروضة على الشاشة الصغيرة قبل قليل قد التصق بذاكرتى ، حتى أننى قبضتُ على أصابعى متلبسة بنقر الإيقاع الراقص على ذراع أريكة الصالون ..

تبًا لكل شىء !

سأذهب اليوم إلى الكلية ، ففى هذا المزاج العاصف يبدو الحال مناسبًا لركل بعض المؤخرات كما يقول الأمريكان فى أحد أمثلتهم الشعبية السوقية ..

أتى (جلال) سائق سيارتى (البيجو ٥٠٤) الخاصة منذ سنوات ، وهو فى نفس الوقت شقيق (أم محمود) ، وقد أقلنى فى صمت القبور .. يبدو أن (أم محمود) قد أفهمته ألا يحاول التلفظ بأى كلمة معى ، وإلا لقى ما يكره ..

لحسن الحظ أنها فعلت ..

عدد غلاوة الشوق يا حبيبى باهدى لعنيك سلامات

والله بكرة تروق يا حبيبى وأحكى لك الحكايات !

الأغنية اللعينة وإيقاعها الراقص مرة أخرى ..

اخترقت بنا السيارة بوابة الكلية ، وتراءى لعينى إنجاز عمرى الأضخم متمثلا فى عدة مبان تعليمية يتصدرها مستشفى جامعى أنيق مبنى على شكل الحرف اللاتينى H من المسقط الرأسى بحيث يبدو للطائرات من الأعلى واضحًا أنه مستشفى فى حالة حدوث هجوم جوى عسكرى لا قدر الله ..

كانت هذه فكرتى المواكبة لأحدث أنظمة البناء المعمارية أيامها ..

هناك مبان أخرى لمعهد التمريض وسكن الطلاب والطالبات وعدد من المبانى الإدارية والمخازن ، يربط بينها جميعًا شريط ضيق من الأسفلت تتهادى فوقه السيارة ، متيحة لى الفرصة أن أحارب انزعاجى المجهول المصدر بالتأمل فى تغيرات شملت كل شىء ..

يا للزمن الطويل ..

كان المكان هنا عندما تسلمته محض صحراء جرداء صفراء الرمال ، واليوم هو مدينة طبية كاملة تشغى بالمرضى والأطباء وطاقم التمريض والموظفين والإداريين والأكاديميين والطلبة ، حياة تخلقت من رحم العدم ، وكنت أنا من استقبلها للحياة كطبيبة توليد متحمسة ..

يا للزمن ..

كل شىء تغير منذ كنت العميدة حتى اليوم ، رجال الأمن انتشروا فى الكلية أكثر ، السيارات كثرت وأصبحت أكثر حداثة وفراهة ، الفتيات تحررن وصرن يرتدين سراويلات ضيقة ــ هل أقول فاضحة ؟! ــ من الجينز وتبدو بطونهن فى موضة المعدة Stomach الشائعة هذه الأيام فى مقابل أخريات لا يظهر منهن إلا أعينهن داخل النقاب الأسود المنسدل ، الصبيان أطالوا شعورهم واتسعت سراويلاتهم حتى يكاد الواحد يسقط من صاحبه أرضًا ..

الأحوال تتغير ولا تتغير ..

سيارة الإسعاف تخرج بنفير مدوٍ لإنقاذ روح جديدة ، أهالى المرضى يفترشون الحشائش الخضراء خارج قسم الطوارئ ما بين يأس ورجاء ، أحد الأهالى يصرخ طالبا بعض العدالة والاهتمام من أطباء منشغلين حتى النخاع فى مهام أخرى ، بعض الطلبة فى الجوار يركلون قطعة من الصفيح ــ كانت فى الأصل علبة مياه غازية ــ فيما بينهم كأنهم يلعبون الكرة بالمعاطف البيضاء ، على ظهر سيارة شاب وشابة يتناجيان ببسمات ما زال الخجل يعتريها رغم ابتذال العصر ، البعض الآخرون يهرولون نحو قاعة المحاضرات والمعامل ، أحد الطلبة يجلس على طوار المرآب ممسكًا بجيتار يعزف عليه لحنًا لا أسمعه ، يرنو إليه شاب بدين بقبعة على رأسه ويلقى له ببعض العملات على سبيل الاستظراف واستجلاب ضحك الفتيات ..

تغيرت الأمور حقًّا وإن كان بعضها بقى على ما هو عليه ..

ما زلت أحاول التغلب على إيقاع الأغنية السخيفة ..

مشتاقة .. يا حبيبى .. مشتاقة ..

والغربة سرّاقة ..

فين عيونك .. فين ؟!

و(جلال) أنزلنى من السيارة أمام مبنى (العميد) ، هكذا يطلقون عليه منذ كنت أنا التى تقوم بمهام المنصب بين القوسين ، وكالعادة أطل الجميع من النوافذ وتحلق الواقفون من بعيد ليرونى أسير بصعوبة متوكئة بيد على عصاى وباليد الأخرى على ذراع (جلال) ،

وكنت قد ألفت مصمصة الشفاه وهز الرءوس وتعاطف العيون الشامتة من زياراتى السابقة للكلية على فترات تتباعد مع الوقت ..

ـ أهذه هى التى كانت كلمتها تهز أركان الكلية ؟!

ـ حقًا ، إن الكِبَر عِبَر !

وعبارات أخرى تصلنى رغم ثقل سمعى المكتسب حديثًا ، فأتجاهلها رغم أن هذا لا يجعل يومى أفضل ، ولا يجعلنى أشعر بأننى تحسن ..

فى مكتب (العميد) قابلتنى السكرتيرة بالترحاب ، وهى شابة لا تصلح لتثبيت زر فى قميصى ، لا إدارة مكتب شخصية مهمة مثل عميد الكلية ، لكننى لن أضيع طاقتى السلبية على من هم دون مستوى التقريع ..

ـ أين (عزت) ؟!

سألتها فى جفاء ، متعمدة ألا أضع أمام اسمه لقب (دكتور) ، فأجابتنى بآلية فجّرت قناع ترحابها الزائف :

ـ الدكتور (عزت) فى اجتماع المجلس الآن ..

مجلس الكلية تعنى ، رائع ..

هذا أجمل مما تصورت ، سأركل الكثير من المؤخرات إذن ..

تركتها واتجهت من فورى إلى غرفة الاجتماعات الصغيرة الملحقة بالمكتب مستندة على عصاى ، ومنتعشة بطاقة جبارة خفية المصدر ، بينما تجمدت السكرتيرة ومن خلفها (جلال) فى ذهول صامت ..

فتحت الباب واقتحمت الحجرة دون سابق إنذار أو طرقات مهذبة ، التهذيب غير مجد مع هؤلاء ، هكذا علمتنى الحياة فيما علمتنى ، وقد علمتنى الكثير ..

قطع اقتحامى المباغت حديثًا تافهًا كان يدور هنا مع أكواب الشاى وفناجين القهوة وقطع الجاتوه الصغير (سواريه) وعيدان (الباتون ساليه) ، واتجهت نحوى أعناق وعيون العميد ورؤساء الأقسام وأصحاب الحظوة السامية من أطباء وطبيبات شبان وشابات ..

نظراتهم المتسائلة سرعان ما تحولت ذهولا لا يقل أنملة عن ذهول السكرتيرة و(جلال) بالخارج ، إن لم يزد أضعافًا مضاعفة ، وسرعان ما تمالك الدكتور (عزت) نفسه بصلعته اللامعة وبسمته الأكثر لمعانًا وأناقته الفاضحة التى تكاد تعشى بصر من ينظر إليها مباشرة ، فنهض من على مقعده كما كان يفعل مسبقًا عندما يدخل مكتبى ، أعنى أنه انتفض واقفًا للدقة ، وهلل فى سعادة تعسة :

ـ الدكتورة (عصمت) بنفسها ؟! أكاد لا أصدق نفسى .. غير معقول ..

مضيت خطوتين نحوه وعكازى يدق الأرض الخشبية ، فيما أقول بصرامتى المألوفة :

ـ أشياء كثيرة غير معقولة لكننا نضطر لقبولها لأننا لا نملك سوى القبول .. أليس كذلك ؟!

ربما فهم مغزى عبارتى وربما لم يفهم ، المهم أنه حاول جاهدًا أن يتقى شرى :

ـ لقد أنارت الكلية كلها .. تفضلى واحضرى معنا الاجتماع ..

كأنى انتظر الإذن منه هذا الـ ....

ـ أرى أنكم ترهقون أنفسكم حقًّا من أجل سير العملية التعليمية على ما يرام ..

قلتها ساخرة وأنا أرمق حجم المأكولات والمشروبات مقارنة بحجم الأوراق التى يتم تدارسها ، فى عهدى لم أكن أسمح بـ ...

بالله على ، ما لنا والماضى والآن ؟!

قال (عزت) فى تزلف أحفظه عنه جيدًا :

ـ إننا نسير على القواعد التى أرسيتها بنفسك يا دكتورة أثناء عهدك المبارك !

مشكلتى هى مشكلة كل ديكتاتور فى هذا العالم : كنت أطرب لسماع النفاق من حولى رغم علمى أنه محض نفاق ، ولهذا سمحت للذباب بأن يتكاثر فوق طبق العسل حتى نفد العسل وبقى الذباب ليتقلد المناصب العليا ..

أنا الملومة لا غيرى فى وجود هذا الإمعة على رأس الكلية ، أنا التى زوجته لبنتى التى لم أرزق بها والتى لم تنزلق من رحمى ، ودفعت عنه المهر ومؤخر الصداق بل وأجرة المأذون أيضًا ..

لكنى على الأقل أستطيع لعب دور الحماة المزعجة ، أستطيع أن أكون دبورًا لا يدع الذبابة تهنأ بصيدها الثمين :

ـ أستطيع ملاحظة هذا حقًّا يا (عزت) ..

متعمدة ألا أضع أمام اسمه لقب (دكتور) !

ـ كل ما تفعلونه ينطق بسيركم على القواعد التى وضعتها ، حتى أنى بالكاد أذكر هذه القواعد الآن من فرط انتهاككم لها .. لعلك تعنى أنكم تسيرون على هذه القواعد بممحاة .. أليس كذلك ؟!

احتقن وجه (عزت) الذى لم يتوقع هجومًا مبكرًا وضاريًا إلى هذا الحد ، وحاول أن يرتبك ففشل حتى فى الارتباك :

ـ إممم .. فى الحقيقة .. أعنى .. إنه التطوير ليس إلا .. مجاراة قواعد العصر تقتضى ...

مزاجى يميل إلى السخرية السوداء بطريقة مثيرة للشفقة والحماس :

ـ نعم .. نعم ، صدقت .. مجاراة قواعد العصر تقتضى أن تسيروا على قواعدى بقلم سائل تصحيح لا ممحاة .. يا لى من غبية ..

ظل (عزت) صامتًا يحاول أن يجد طريقة تقيه الحرج أمام مرءوسيه ، مما جعل اقتناص فرصة الهجوم السهل حتميًّا ..

كان ينتظر ما هو أقذع من مجرد سخرية ولم أكن لأخيب ظن ذبابتى الحبيبة :

ـ لقد قضيت فى وقت قياسى على كل ما ظللت أنادى به من يوم أن كانت الكلية حلمًا ، مجرد حبر على ورق .. الرائحة فاحت وليس فى وسع أحد أن يتجاهلها ، حتى أنا العجوز الشمطاء التى لا تغادر منزلها إلا لممًا تصلنى أنباء انتشار الدروس الخاصة ، وتفوق أبناء الأساتذة ، ومحاباة هذا لصالح ذاك ، وجسور المصالح الممتدة فوق وتحت الطاولة .. أصبحت الكلية مرتعًا للفشلة والجهلة ومجرد ماسورة معطوبة تنفجر من آن لآخر بخريجين لا يفقهون من أمر الطب أو الحياة شيئا ، وتتحدث بكل جرأة ـ أو لعلها وقاحة ـ عن السير على قواعدى ؟! هل تحاول خداعى أم أنك تخدع نفسك يا (عزت) ؟!

رشح العرق على وجه (عزت) فأخرج منديله القماشى من جيب سترته ، وحاول أن يرتبك مجددًا لكنه كان فقط ينتظر الضربة القاضية حتى تنتهى المباراة لصالحى :

ـ دكتورة .. إننى ...

لم يكن لما أفعله أى معنى ، أعرف هذا ، لكن ...

هل تُساءَلُ من هى فى مثل سنى وحالتى الصحية والنفسية عن تبرير لما تفعله ؟! ألا يكفى ما أكابده يوميًا من انتظار وقلق على (نعمان) ؟!

لم يكن فى جعبتى مزيد من التقريع ، وكان (عزت) قد بلغ حال يرثى لها حتى خلت أنه سينهار ساقطًا على الأرض فى أية لحظة ، فكان لابد من قوة خارجية تنقذ الموقف دون حاجة إلى معجزة قد يطول انتظارها ..

ـ أعتقد أن وجود الدكتورة (عصمت) اليوم سوف يكون حلا مثاليًّا لمشكلة نقص ممتحنى طلبة السنة الرابعة ..

كان (خالد) هو المتحدث ، دكتور (خالد) ألمعى المخ والأعصاب وواحد من الأجيال التى أفخر بخروجها من تحت يدى إبان عهدى الذهبى ، لولاه لما كان (نعمان) يتعلق بأهداب الأمل العلاجية الأخيرة فى (جنيف) ، ولولاه لما أمكن (عزت) الخروج من ورطة وجودى اليوم ..

لحسن حظه أن (خالد) عضو نشط فى مجلس الكلية !

لاقى اقتراح (خالد) استحسان الجالسين جميعًا ، فهو حل مثالى للخلاص منى بطريقة لطيفة ، على طريقة فقع البثور ، لأذهب ـ ولو إلى الجحيم ـ وأتركهم يأكلون ويعملون ، هذا ما قرأته على وجوههم فى صراحة قاتلة ..

هكذا اصطحبنى (خالد) مشكورًا للخارج ، وفى الطريق إلى المستشفى حيث تجرى الامتحانات قال لى باسمًا :

ـ كدت تقتلينه يا دكتورة ..

قلت حانقة ، ومدركة لعدم جدوى كل ما فعلت وما سأفعل :

- إنه يستحق الإعدام على كرسى كهربائى ..
- ذهبت أيام المجد لكنها قد تعود ..
- سأكون قد مت ثلاث مرات على الأقل !
- وكيف حال الدكتور (نعمان) ؟!
- المفترض أن تكون أدرى به منى ..
- سأهاتفه اليوم وأطمئن عليه ، وأطمئنك ..

تركنى (خالد) فى غرفة العيادة الخارجية حيث يجرى الامتحان ، وترك لى بضع أوراق تصحيح وقلم وبسمة وكلمة تشجيع ووعد بلقاء قريب وطمأنتى على (نعمان) مجددًا ، وهكذا دخل لى أول الطلبة مع امرأة فى شهرها الثامن جاءت لمتابعة الحمل ..

كان هو الطالب البدين الذى رأيته يتظارف عند دخولى للكلية ، وكان يرتدى المعطف الأبيض وعلى رأسه نفس القبعة التى رأيته بها فى الخارج ..

طلبت منه أن يقرأ تاريخ المرأة المرضى قبل أن ندخل فى الموضوع فخاطبنى بتبسط أكرهه بأنه لم يستطع أن (يشيّت) الحالة كاملة نظرًا لضيق الوقت ..

(يشيت) فعل نشأ بين طلاب الطب منذ قديم الأزل ، حيث يشتقون من المصطلحات الأجنبية أفعالا خاصة بهم لا هى عربية ولا أعجمية ، من Sheet يأتى الفعل (أشيّت) وهو يعنى أخذ

بيانات المريض وتاريخه المرضى كاملاً ، من Arrest يأتى الفعل أن المريض (يأرّست) أى أنه يدخل فى حالة من الفشل القلبى وتوقف النبضات ، من Gasp يأتى فعل أن المريض (يجاسب) أى أنه يلهث فى عنف ، وهكذا ..

ولما كنت من أشد المناهضين لهذه الأفعال اللغوية الدخيلة ، كما كنت من أشد المناهضين طوال عمرى لأخذ التاريخ المرضى من مريض مصرى صميم باللغة الإنجليزية ، وقراءته أمام الممتحن بهذه اللغة التى لا يفهمها المريض كنوع من التعالى عليه ، بالإضافة إلى أن تبسط هذا النوع من الطلاب أمام ممتحن فى مثل سنى ومركزى لا يمكن تفسيره من وجهة نظرى إلا بخطأ فى النشأة أو بتركيبة عظمة سيكوباثية فى نسيج الشخصية ، كما أن المهزلة الكبرى التى تجلت فى جهل الطالب بأبسط قواعد الكشف الموضعى على امرأة حامل كتحديد مستوى الرحم ووضع الجنين ، أضف إلى هذا دخوله إلى الامتحان معتمرًا قبعة وهو سلوك لا أريد أن أرهق نفسى بفهمه فى ظل وجود درجات لتقييم مظهر الطالب .. كل هذه عوامل ساهمت فى وضع درجة رسوب عظيمة بضمير مستريح تمامًا ، لعل الطالب المسكين يفيق إلى أن حياته كلها عبارة عن سلسلة من الأخطاء لا يمكننى تحمل وزرها ..

ماذا كان اسمه ؟! (مؤمن) أم (أمين) ؟!

لا يهم .. التالى ..

فتاة هذه المرة ، يبدو أنهم أخبروها أننى أحب سماع التاريخ المرضى بالعربية فبدأت تلاوته على فى تنسيق أنيق ، وأنا أمام هذا النوع من المتأنقات لا أستطيع مقاومة اللجوء لبعض الخدع الامتحانية التى لا يبطل مفعولها مع مرور الزمن أبدًا ..

توجهتُ بسؤالى إلى السيدة التى جاءت لتركيب وسيلة منع حمل :

ـ هل تعرفين الدكتورة ؟!

صدمت المرأة الشابة ، قبل أن تقول :

ـ أجل ، إنها طالبة ..

ـ ما اسمها ؟!

ـ لا أعلم ..

هنا توجهتُ إلى الطالبة ببسمة سادية :

ـ أليس من المفترض أن تبدئى بتعريف نفسك إليها يا دكتورة ؟!

انتهى أمر الفتاة قبل أن تبدأ ، وبوجه مخضب بالحمرة حاولت أن تتماسك :

ـ إنه ارتباك الامتحان يا دكتورة (عصمت) .. لم آخذ حالة فى حياتى من قبل دون أن أعرفها باسمى ..

كانت الفتاة قد ارتكبت خطأها القاتل الثانى دون أن تدرى ، ولعمرى فهو عذر غير مقبول على الإطلاق ألا تدرى :

ـ حالة ؟! هل أنتِ حالة يا فتاة ؟!

صدمت الفتاة :

ـ أنا ؟!

ـ أجل ، إنك تسمينهم حالات .. فهل تحبين أن أعتبرك أنت الأخرى حالة ؟!

صمتت الفتاة ، وتابعت أنا وقد وجدت ضالة أنفّس فيها عن مزاجى المتكدر :

ـ عندما نمرض أو نطلب الرعاية الطبية نرفض أن يعتبرنا الطبيب مجرد حالة ، لكننا عندما نتقمص دور الطبيب يتحول كل واقف ببابنا إلى حالة .. مجرد حالة .. الطبيب الفاشل فقط هو من يتعامل مع المريض باعتباره شيئًا ، لا باعتباره إنسانًا ..

انتهى أمر الفتاة وقد تحول وجهها إلى ثمرة طماطم ناضجة بقية الامتحان ، ومنحتها فى النهاية درجة النجاح المنخفضة لأن يديها كانت ترتعشان وهى تؤدى الفحص الموضعى ..

على الأقل هى تعلمت شيئًا لن تنساه بقية عمرها ..

ماذا كان اسمها ؟! (أمينة) أم (أمانى) ؟!

التالى ..

كان هو الفتى الذى رأيته يعزف الجيتار على الطوار ، وعن قرب تمكنت من فهم مفتاح شخصيته قبل حتى أن يفتح فمه ..

خبرتى الطويلة فى عالم الطلاب تجعلنى أقرؤهم من النظرة الأولى ..

هذا الفتى مدلل ، يتيه فخرًا بوسامته ـ عيناه الملونتان وشعره الطويل وذقنه الحليق ـ ويحاول لفت الأنظار إليه بملابس غريبة ذات ألوان فاقعة ربما عن غير وعى مباشر منه ، هو ذكى بدليل حصوله على مجموع كلية الطب لكنه فوضوى بوهيمى فى الوقت نفسه تتنازعه ميول غريبة لا يسمح ذووه بأن تسيطر عليه إلى حد الخروج عن سيطرتهم هم ..

ذووه هؤلاء هم كلمة السر ، تدليلهم الزائد جعله يحب نفسه ويغفر لها ولا يميل لإهانتها ، لذا يجب التعامل معه بحسم من اللحظة الأولى ..

لا أذكر أنى أحببت نفسى رغم حرصى عليها طوال هذه السنوات .. إن الحرص الزائد يقتل الحب على طريقة الدبة الشهيرة التى قتلت صاحبها .. وربما أكون قد انتحرت فى طفولتى أو مراهقتى دون أن أشعر بحرصى الزائد على نفسى ..

سأفكر فى (عصمت زين الدين) فيما بعد ، بعد أن يتعلم هذا الفتى درسًا ما ..

قراءته الركيكة للتاريخ المرضى وتلعثمه فى كل سؤال ، ثم وقوفه المتردد أمام الحامل حديثًا على سرير الكشف وارتعاش يديه وهو يؤدى الفحوص كأنه يفعلها للمرة الأولى فى حياته ، ثم وجومه فى بقية الأسئلة العملية دون إجابات ، كل هذا جعل الرسوب حتميًا ..

وجعل فقدانى لشهية الامتحانات يتحكم فى ، فقررت أن أعود إلى المنزل لأنال بعض الراحة ..

ماذا كان اسمه ؟! (طارق) أم (ياسر) ؟!

لايهم ، فلن يكون هناك تال على أية حال ..

صحيح أن شعورى السيئ قد أصبح محتملاً بعض الشىء ، وإن لم يتلاش كليًا ، ولم يظهر له سبب بعد ، لكن وجودى هنا كضيفة فى بيتى لا يجعلنى مسرورة ..

ركلت بعض المؤخرات ، الكثير منها لو أردت الدقة ، أساتذة وطلاب ، فماذا يمكن أن أطلب أكثر من هذا ؟!

عندما خرجت من العيادة الخارجية كان ضحاياى الثلاثة هناك ، البدين مطرق برأسه على مقعد خشبى بجوار المرضى ، الفتاة اقتربت منى متلهفة لتعرف إن كانت قد نجحت أم لا ، ولم أرد عليها كأنى لا أسمعها أصلاً ، أما الأخير فقد كان يجلس مسندًا ظهره على حائط العيادة الخارجى ..

وكان يبكى ..

هذا الفتى تنقصه الكثير من هرمونات الذكورة !

فى طريق العودة إلى المنزل كانت الأغنية اللعينة تتردد فى ذاكرتى ..

مالى غير حبك أمانة .. عود لأحضانى ..

يا حبيب قلبى معاك .. دنيايا واحشانى ..

مشتاقة .. يا حبيبى .. مشتاقة ..

والتزم (جلال) الصمت المطبق ، نفس الصمت الذى قابلتنى به (أم محمود) ، والذى تناولت به غدائى ، ثم استمعتُ إلى بعض الموسيقا الكلاسيكية علها تنتزع الأغنية اللعينة وإيقاعها المبتذل الراقص من داخل رأسى ، وأخيرًا جلست فى الشرفة أنتظر مكالمة (نعمان) ، وأراقب النوارس على سطح البحيرة ..

هل قلت نوارس ؟!

هو نورس وحيد اليوم ، يحوم فوق المياه الزرقاء ، ويرسل ترانيمه الحزينة نحوى ، كأنها نواح مكتوم ..

أين ذهبت بقية النوارس ؟!

مر الوقت دون أن أشعر ، حتى حل الظلام ، ولم يتصل (نعمان) ..

أقلقنى هذا بشدة ، لكنى حاولت التلهى بأمر آخر ..

(بوسى) ..

أين هى ؟!

لِمَ لم تأت وتتمسح فى ساقى مثل هذا الوقت كل يوم ؟!

لِمَ لا أسمع لها صوتًا منذ عدت من الكلية ؟!

نهضت من مقعد الشرفة وعدت ببطء عجوز متوكئة على عكاز إلى داخل المنزل ، بحثت عنها ووجدتها فى المكان المتوقع ، داخل سريرها المصنوع من القش والقطن المغطى بالحرير ..

كانت هناك ، مُقعية أمام طبق اللبن الخاص بها ، دون حراك ..

كانت ميتة !

وفى اليوم التالى صباحًا ، بلغنى النبأ عبر اتصال هاتفى بارد من بلاد بعيدة باردة ..

نبأ موت (نعمان) ، هناك ..

فى (جنيف) !

* * *

(٣)

وحـدى ..

ملابسى سوداء ، قهوتى علقم ، دموعى متحجرة تأبى أن تنفرج عنها مقلتاى العنيدتان ، والنورس البعيد على سطح البحيرة يحلق ، يعلو ، ثم ينخفض ..

وحدى ، لأول مرة على امتداد حياتى الطويلة ..

عندما تبلغ مثل هذا العمر وحيدًا وبلا سلطة ، يكون من الصعب أن تجد حولك أيًا من المعزين أو المنافقين أو أصحاب المصلحة ، الجنازة لم يحضرها أحد تقريبًا سوى الندرة من الأساتذة الأفاضل والتلاميذ البارين ، كانوا قليلين إلى درجة مخزية لا تليق بمكانة الفقيد التى اجتهدت فى صنعها له طوال حياتى ، لا تليق بها أبدًا ..

وحدى ، وقد هبط نصف حياتى الآخر مع (نعمان) إلى ظلمات القبر ..

لم أستطع أن ألقى بنظرة أخيرة على الجثة ، لم يطاوعنى قلبى العنيد ، هبط التابوت من الطائرة وتولى (خالد) مع بعض زملائه إجراءات الغسل والتكفين ، سألنى إن كنت أود إلقاء نظرة أخيرة فامتنعت عن الجواب ، وفهم هو أن السكوت ليس دائمًا علامة رضا ..

وحدى ، ولا مستقبل ..

فقط ماض يطل بوجهه الكئيب على كل لحظة أعيشها ، يطل من كل شهادة معلقة فى الصالة ، من كل صورة لى وله ـ معًا أو على حدة ـ فوق الحائط أو فى ألبوم الذكريات ، من فراش القطة التى فاضت روحها فى نفس الوقت الذى رحل فيه هو هناك بعيدًا فى البلاد الباردة ، من كل زاوية فى المنزل ومن كل مرآة تعكس ملامحى الشبحية وحتى من حومان النورس البعيد الذى يترنم نائحًا ببكائيته الأخيرة ..

لعلها بكائيتى أنا ، لا بكائيته ..

أنا التى لم تذرف دمعة واحدة منذ تلقت الخبر الصادم ، رغم أنه كان متوقعًا !

لم أمر بفترة حدادى بعد ، ولا أدرى متى ستحل ..

الزلزال الذى ضرب حياتى بعنف مباغت سوف تمتد آثاره طويلاً على ما يبدو ..

يدنو منى (خالد) ، الذى يتصرف ببنوة حقيقية دونما غرض أو نفاق أو مصلحة لا أملك تحقيقها له أو لغيره :

ـ رحل آخر المعزين ..

يقولها ملقيًا بنفسه على المقعد بجوارى ، فأهز عصاتى وأقول بسخرية أشد مرارة من قهوتى :

ـ وأولهم أيضًا !

نظر فى وقال بلهجة عميقة :

ـ لا تبدين على ما يرام يا دكتورة ..

رفعت عصاتى فى غضب وضربته بها ضربًا هينًا على كتفه إذ أهتف :

ـ لو أظهرت تجاهى مزيدًا من الشفقة فلا تلومن إلا نفسك يا فتى !

ـ هونى عليك يا دكتورة (عصمت) ..

ـ وإياك أن تطلب منى طلبًا كهذا مرة أخرى ، لا تنطق بمزيد من كلمات التهوين البائسة وإلا انصرف الآن غير مأسوف عليك .. ولتكن أنت آخر المعزين !

ران الصمت ، إلا من بكائية نورس وحيد عند الأفق الأزرق القريب ..

لم ألحظ التردد فى عينى (خالد) إلا عندما قال :

ـ فى الحقيقة ، لا أدرى إن كان الوقت مبكرًا على قول هذا أم لا ، لكن ...

سألته ولاحظت التردد الذى يلتهم عينيه وشفتيه :

ـ قول ماذا ؟! مزيد من كلمات المؤازرة الحمقاء ؟!

ـ كلا ، لكن .. الدكتور (نعمان) رحمه الله ..

سألته واللهفة تلتهم عينى وشفتى :

ـ ماذا عنه ؟!

ـ لا شىء .. فى الحقيقة .. إنه .. إمم .. هو ..

ـ تحدث دون لعثمة ..

نطقت بها فى صرامة المعلمة القابعة فى أعماقى ، فانتصب ظهر التلميذ الجالس أمامى ، واعتدل لسانه بغتة إذ يقول :

ـ لقد ترك عندى قبل السفر أمانة أوصلها إليكِ يا دكتورة فى حال ما إذا ...

هذا أغرب من أن يكون حقيقيًا :

ـ وصية ؟!

هز (خالد) كتفيه :

ـ لا أدرى ، إنه مظروف مغلق ..

ـ أين هو ؟!

تنحنح (خالد) ووضع يده فى جيب سترته ليخرجها بمظروف أبيض متوسط الحجم مغلق بشريط لاصق شفاف ، اختطفته من يده فى سرعة ..

هناك كتابة بقلم فلوماستر ثخين على المظروف من الخارج ، هو خط (نعمان) فى كتابة الأرقام اللاتينية كما أحفظه جيدًا ..

صف من الأرقام أجهل ماهيته ، أكثر من عشرة أرقام متراصة جانبًا بما لا يحمل معنى أو تفسيرًا ما ..

ورق المظروف الأملس ينساب فى نعومة فوق الجسم الصلب فى الداخل ؛ جسم صلب يبدو أنه شريط كاسيت مثلا !

فككت الشريط اللاصق لأتبين أن ما فى الداخل شريط كاسيت بالفعل ، مكتوب عليه بنفس القلم الفلوماستر (إلى العزيزة عصمت) ..

هو خط (نعمان) الردىء فى كتابة العربية كما أحفظه جيدًا ..

ـ وصية صوتية ؟!

همهمت كأنى أسأل نفسى ، فهز (خالد) كتفيه وقال كأن الأمر لا يعنيه :

ـ يبدو هذا !

هذا أغرب من أن يكون حقيقيًا ، حقًا !!

بدأت الأسئلة تتناسج وشاحًا من الحيرة والغموض ، وبدأت اللهفة تستبد بى طاغية عاتية لسماع صوت (نعمان) من جديد ، ذلك الصوت الذى ظننتنى لن أسمعه مجددًا ما بقى لى من سنوات لا أظنها سوف تطول ..

كان (خالد) مهذبًا ولماحًا فى الوقت نفسه ، فنهض قائلاً وهو يضرب براحتيه ركبتيه :

ـ أستأذنك الآن ..

ولم ألح عليه فى البقاء ..

ناديت (أم محمود) لتوصله حتى الباب الخارجى وطرت نحو حجرتي ، لو كان الطيران هو أن أبلغها فى عشر دقائق كاملة ، ثم إنى غلقت الأبواب وهيئت له ..

أصبحت وحدى مع المسجل وشريط الكاسيت ..

و(نعمان) ..

دارت البكرتان داخل الجهاز ، وأرهفت سمعى لألتقط كل ما يمكن سماعه .. حتى الصمت الذى يصاحب بداية الشريط كان له وقع مختلف عن كل صمت سمعته فى بداية أى شريط من قبل طوال حياتى ..

ثم جاء صوت (نعمان) ، أخيرًا ..

ـ كيف حالك يا (عصمت) ؟!

ابتسمت فى حنين مباغت ، وشملتنى رعشة قوية اهتزت لها كل خلايا وجدانى ..

هو صوته ، رنين نبرته الهادئ ثم سعاله المجنون كأنه سيلفظ رئتيه من فرط قوته ، ثم ...

- معنى وجود هذا الشريط فى حوزتك الآن ، وسماعك له فى هذه اللحظة أننى قد مت بالفعل .. يا للدهشة ، أموت ومع هذا يمكن أن أنقل لك ما أريد قوله .. أموت .. أنتهى .. لا يعود لى الحق فى مزاحمة أحد بأحقيتى فى أن أكون هنا ، بينكم من جديد .. ومع هذا يمكنك أن تستمعى إلى صوتى المخزن على شريط ممغنط ، حتى لو بأثر رجعى .. إنها عبقرية التكنولوجيا التى تتيح لنا أن نقتنص اللحظة التى تمر ، نجمدها ، نخزنها بحذافيرها .. لقد قال أحدهم ـ لعله (صامويل باتلر) ـ : إن كل التقدم مبنى على رغبة غريزية عالمية فى أعماق كل إنسان لكى يحيا بأكثر مما يمكنه الحصول عليه عادة .. التقدم يمكننا بأن نحظى بالكثير من الخبرات مقارنة بأعمارنا ، فإن لم يستطع أن يطيلها بشكل طولى فإنه يضيف إليها التجارب التى تطيل منها بشكل عرضى .. انظرى لكل هذه الصور التذكارية التى نحصل عليها ، لكل أشرطة الفيديو التى نخزن فيها لحظاتنا السعيدة والتعسة ، لكل كلمة نكتبها ونطبعها وننشرها ، أليست كل هذه أشياء تضيف إلى سنواتنا المزيد ؟! أحيانًا أتخيل أنه إذا قدّر لإنسان أن يسجل كل حياته على شريط فيديو من لحظة ميلاده إلى لحظة وفاته ، فإن ذلك يضيف له حياة واحدة أخرى على الأقل .. الحياة التى عاشها ، هذه واحدة .. والحياة الأخرى المسجلة على الشريط .. حياتان متطابقتان هذا صحيح لكنهما حياتان فى كل الأحوال .. حتى لو لم تمكنه أى منهما من قهر ذلك الغول الخرافى العتيق الذى نسميه الموت .. الموت .. هه .. إننى أجهل ماهيته قطعًا كما يجهله كل

الأحياء .. لم يعد أحد من العالم الآخر ليخبرنا بطبيعة هذا الغامض الأكبر الذى نسميه موتًا ، والذى أقف على أعتابه الآن ، هنا ، وحيدًا فى غرفتى بالمستشفى التذكارى الضخم لمرضى السرطان ، فى (جنيف) ..

لا بأس يا عزيزى (نعمان) ، ثرثر كما تحب ، أما أنا فسأكتفى بالصمت ..

- أصارحك القول بأننى فكرت فى تسجيل شريط فيديو بالصوت والصورة بدلا من تسجيل صوتى كسيح كهذا ، لكنى أشفقت عليك من مغبة ما سترينه يا عزيزتى .. إن الوقت والسرطان قد أتيا على ولم يتركانى إلا حطامًا كريهًا .. تساقط شعر رأسى وانهارت أسنانى وهزل جسمى واسودت خطوط جلدى المتكرمشة ، النهاية قادمة ما بين لحظة وأخرى وليس لى إلا انتظارها صاغرًا ، وفى جلوسى هنا وحيدًا أفكر كثيرًا فيما مضى ، وأحاول تقييم نتائج عمرى فلا أرى أمامى سواك يا (عصمت) ..

لا بأس يا عزيزى ، ثرثر كما تحب ، أما أنا فسأكتفى بالصمت ، و ...

- .. أسائل نفسى أمام المرآة كل يوم عن كل ذلك الوقت الطويل الذى عشناه معًا ، عن الحياة التى صهرتنا فردين فى بوتقة واحدة ، عن الزواج الذى عشناه والأسرار التى أخفاها كل منا عن الآخر والقرابين التى قدمناها فى دأب مخلص دون كلل من أجل الاستمرار ، أسائل نفسى : هل كان ما بيننا حبًا ؟! هل أحب أى منا الآخر حقًا ؟!

.. والبكاء ..

(لا أجرؤ بعد كل هذه السنوات على تسمية ما بيننا بالحب طبقًا لما يكتبه الروائيون وما يصنعه السينمائيون وما يشعر به الرومانسيون) ..

إننى أعيش لحظات حدادى أخيرًا مع صوتك يا (نعمان) ، ومع كلماتك القاسية التى تنهال من سماعة المسجل كدبابيس حادة تنغرس تحت جلدى بلا رحمة ..

ـ لم أصل حتى الآن إلى جواب شاف يعيننى على المغادرة فى راحة .. أشعر أنى مدين لك بالكثير يا (عصمت) ، فبدونك ما كنت لأحيا بالنسبة للآخرين على الأقل .. أنا أمامهم الآن رجل عظيم ، عاش حياته كما ينبغى لرجل علم وزوج أمين أن يعيشها ، ناجح فى عمله ومخلص لزوجته المحبة .. وحدك يا (عصمت) تعلمين الحقيقة المرة .. تعلمين أننى لست أنا الذى يرونه فى المرآة اللامعة ، وأننى طوال عمرى قد عشت وحيدًا منفيًا على الهامش ، عازفًا عن المشاركة الفعلية ومكتفيًا بالغياب ، تاركًا إياكِ تتشرنقين بدورك فى لجة العمل والترقى الوظيفى .. ربما لم أحبك كما كان يجب أن أفعل يا (عصمت) ، لكنكِ أثبتِ لى أنكِ كنتِ تحبيننى طوال عمرك دون الحاجة لأن ينطقها لسانك ، صحيح أننا لم نرزق بأطفال لكنى شعرت دومًا بأنى طفلك المدلل .. لم تزعجنى فكرة الأبوة الناقصة أبدًا ، لأنى لم أحتج إليها فى كنف أمومتك الذى شملنى ويشملنى حتى اللحظة ، وحتى يوارينى الثرى كما أنا واثق يا عزيزتى ..

ما الذى تفعله بى يا (نعمان) بعد موتك ؟!

ـ ربما تتساءلين الآن يا (عصمت) عن السبب الذى جعلنى أرسل بهذا الشريط إلى (خالد) أولا بدلا من إرساله مباشرة إليك .. فى الحقيقة هناك حفنة من الأسباب أعتقد أنها وجيهة .. أولا : أنا لا أعرف متى سأرحل ، وفكرة اطلاعك على الأمر الذى أنتويه قبل أن أرحل فعليًا تبدو مزعجة قليلا بالنسبة لى .. لا أريد أن تناقشينى أبدًا فى أى نقطة مما سأطرحه عليك بعد قليل ، عليك أن تختارى بعيدًا عن أية ضغوط ، وعلى أن أنسحب تمامًا بعد تقديم ما لدى إليك .. ربما كنت أطل عليك الآن من حالق كما يعتقد البعض أن أرواح الموتى تفعل ، لكنى لست واثقًا من أى شىء الآن .. ستشعرين بى لو أنى حولك الآن بالتأكيد .. سبب آخر هو أن الدكتور (خالد) له صلة وثيقة بالعرض الذى سأقدمه ، والسبب الأخير هو إتاحة الفرصة لك كى تنسحبى من كل شىء .. على أن أترك لك ثغرة للفرار ، منفذًا للتراجع .. إن فكرة وضعك فى مواجهة مباشرة تجعلنى أشعر بأن ظلمًا ما سوف يقع عليك ، وبأننى قد أحملك ما لا تطيقين ، وهو أبعد ما أريده فى الوقت الراهن ، وما لم أرده طوال عمرى دون أن أفلح فى منعه ..

ما الذى تريد أن تفعله بى أكثر يا (نعمان) ؟!

ـ إنها فرصتى الأخيرة للتعويض يا (عصمت) ، تعويضك عن حياتك التى ضاعت معى ، والتكفير عن كل ذنوبى تجاهك .. إنها

فرصتى يا (عصمت) أن أمنحك بعد كل هذا العمر فرصة ذهبية لكى تعيشى الحياة مرة أخرى .. (حياة جديدة) تمامًا ، ومختلفة تمامًا !

(حياة جديدة) ؟!

أى معنى يمكن أن يحمله تعبير كهذا يا (نعمان) ؟!

- الحقيقة أننى لا أجد مدخلاً مناسبًا حتى الآن ، لذا فاعذرينى لو بدا حديثى مشوشًا .. لقد ثرثرت كثيرًا فى محاولة لإرجاء مصارحتك مباشرة ، لكن هذه اللحظة كانت ستأتى مهما حاولت إرجاءها .. فى الواقع أن الدكتور (خالد) تلميذنا النجيب هو من اقترح على الأمر أولا كنوع من علاج أخير لحالتى الميئوس منها .. والفكرة ببساطة تقوم على نظرية علمية ربما كانت من ضروب الخيال العلمى منذ سنوات قليلة ، لكنها الآن قد أصبحت فى عداد الأمر الواقع وإن كانت تحيطه السرية شبه المطلقة .. أتحدث يا (عصمت) عن عملية زراعة المخ البشرى لو كنت يا عزيزتى تفهمين ما أعنيه ، وأعتقد أنك تفهمين !

جف نهرا دموعى بغتة ، وقد هبطت على الكلمات كسيل كاسح من القنابل العنقودية شديدة التفجير ..

- هناك مؤسسة طبية متخصصة تقدم برنامجًا لإعادة زراعة المخ البشرى فى جسد آخر ، هذا البرنامج يحمل الاسم الفاتن الذى ذكرته : (حياة جديدة) .. كهل مثلى انتهى تاريخ صلاحيته وضرب العطب السرطانى أعضاءه حتى ليعجز عن أخذ أنفاسه

بسهولة ، يعده البرنامج بما هو أكثر من مجرد العلاج ، أعنى العودة للشباب والاستمتاع بمباهج الحياة فى جسد صحيح معافى لشخص مات بالفعل وتم حفظ جسده بالتجميد .. سأكون أنا بهويتى وشخصيتى نفسها ، تلك التى عاشت كل تاريخى ، وقد أعيد زراعتى فى هيئة وشخصية ظاهرية جديدة تمامًا ، ألا يبدو الأمر فاتنًا وواعدًا يا عزيزتى ؟! هل يستطيع شخص مثلى أن يرفض عرضًا مغريًا كهذا ؟! وبأى حجة يفعل ؟!

رباه .. هذا كثير على أعصابى ..

ارحمنى قليلا ومت فى هدوء يا (نعمان) اللعين !

- استعدى للمفاجأة يا (عصمت) .. لقد رفضت العرض رغم إغرائه ، والدليل أن الشريط الآن بين يديك وأننى قد مت ودفنت بالفعل .. لكنى أمنحك أنت حق الاختيار يا عزيزتى ، يمكنك أن تستعيدى حياتك المفقودة من جديد ، وأن تبدئى فى جسد شاب بداية جديدة لحياة جديدة ، بأن يتم زراعة مخك فى جسد بشرى آخر ، تختارينه بنفسك من ألبوم تقدمه لك الشركة فى حالة الموافقة وإبرام العقد .. إنك أحق منى بهذه العملية ، فأنت التى تعبت وكافحت من أجلك وأجلى ، وأنت من تستحق مكافأة نهاية خدمة باهظة التكلفة مثل هذه .. باهظة هى حقًا إذ العملية الجراحية لنقل مخك من جسدك إلى الجسد الآخر سوف تتكلف المليون دولار تقريبًا ، هبطت التكلفة كثيرًا فى السنتين الأخيرتين لكنها ظلت باهظة ، ومع هذا لا تحملين لها همًّا .. هل ترين الرقم

المدون على المغلف الذى منحك إياه الدكتور (خالد) حاويًا الشريط ؟!

ارحمنى قليلا يا (نعمان) ، فهذا أكثر مما يمكن أن تحتمله أعصابى المشوشة ..

- إنه رقم حساب بنكى هنا فى (سويسرا) ، وعاء ادخارى منحه لى أبى منذ طفولتى ، حصيلته التراكمية الآن تربو على الخمسة ملايين يورو بحساب الفوائد طوال سنين عمرى ، لن أمس مليمًا من هذه الثروة حتى أموت يا عزيزتى ، وبما أنك الآن وريثتى الوحيدة فهى من حقك تمامًا .. إنى أمنحها لك عن طيب خاطر كمكافأة نهاية خدمة كما أسلفت .. فكرى فى الأمر يا (عصمت) ، لا وريث لك أنت الأخرى .. لو تركتِ نفسك هكذا فستلحقين بى قريبًا ، وستذهب هذه الثروة التى لا يعلم عنها أحد إلى لا أحد .. ربما يكون هذا محفزًا لك على خوض التجربة التى أتمنى من كل قلبى أن تكون تعويضًا مناسبًا عن حياتك التى ذهبت معى سدى ، والتى توشك على نهاية مثل نهايتى ، تقترب حثيثًا مهما بدت بعيدة ..

ارحمنى يا (نعماااااااااان) ..

ارحمنى ..

- تفاصيل التقنية كلها مع (خالد) الذى لا يزال مندهشًا من رفضى لإجراء العملية وتحملى لكل هذا الألم هنا وحيدًا .. لقد

حسمت أمرى يا (عصمت) ، عشت حياتى كلها أنانيًا لا أفكر إلا فى نفسى ، لا أهتم إلا بشئونى الصغيرة التافهة ، ولا أفكر فيك لأنك دائمًا موجودة إلى جوارى .. الآن أشعر أننى أتلقى عقابًا يليق بذنوبى تجاهك ، ولا يسعنى إلا أن أقدم لك تعويضًا بسيطًا عن حياتك السابقة .. فكرى فى الأمر جيدًا يا (عصمت) .. ليس هناك ما تخسرينه .. أريدك أن تتخيلى نفسك شابة تختارين ملامحها وتكوينها الجسدى بنفسك من بين عشرات وعشرات ، أن ترسمى صورًا لكل ما ستفعلينه بالملايين التى تركتها لك ، وبمدخراتنا القليلة فى (مصر) ، أن تضعى خطة لحياة أخرى جديدة تحبينها حقًا ، لعل ذلك يكون صك غفران لى ، وراحة فى قبرى عندما تحلق روحى حولك الآن ..

كلا ، لا ترتدى مسوح الملاك الطاهر يا (نعمان) ..

لستَ ملاكًا ..

- كل ما أطلبه منك هو أن تعتنى بـ (بوسى) فى كل الأحوال ، سواء قبلت العرض أو رفضته .. هذا لو بقيت حية بعدى ..

وجدت نفسى أصرخ فى هستريا عندما بلغ هذا الحد :

- كلاااااا ، لستَ ملاكًا يا (نعمان) .. لستَ ملاكًا !

أراهن أن (أم محمود) تسائل نفسها إن كان يتعين عليها أن تتصل بالسرايا الصفراء ؛ وهى تسمع صراخى الذى يهز جدران الطابق السفلى :

- أنت شيطان .. شيطان مريد .. شيطاااااان !

ـ أتمنى يا (عصمت) أن ...

وبمنتهى الانفعال أمسكت بالمسجل وألقيته بعيدًا ، لينفصل قابس الكهرباء ، وليدوى صوت الارتطام عاليًا فى الجدار أمامى ، بينما صدرى يعلو ويهبط من فرط الانفعال ..

كلا يا (نعمان) ..

إذا كنت مصرًا على تقمص دور الشيطان ، فلن أرتكب خطيئة (فاوست) أبدًا ..

لن أبرم اتفاقًا معك ، ولن أهبك روحى مقابل الشباب الأبدى ..

لن أفعل ذلك مطلقًا ..

بكل ما يجيش به صدرى من انفعال مكتوم كإناء بخارى على الموقد نهضت ، وأمسكت بقايا المسجل الساقط على الأرض .. بصعوبة استخلصت منه الشريط البلاستيكى ، ثم إنى جذبت بسبابتى وإبهامى الشريط البنى الملفوف على البكرتين بداخله إلى الخارج ، ومزقته بطاقم أسنانى الحاد شر ممزق ، كأنى مصاصة دماء تروم الحياة عبر وريدين فى عنق ..

ووقفت ألهث كأنى خارجة من معركة ، دون أن أفلح فى اقتناص شعور بنشوة الانتصار ..

ـ الوغد .. (نعمان) الوغد ..

غمغمت بها فى وعيد كأنى سألقاه يومًا وأنتقم ، ثم إنى نهضت وأنا أفكر أن مازال هناك من يمكن أن أصب عليه جام غضبى الجارف ..

(خالد) ، التلميذ النجيب الذى يبيع إكسير الشباب وعودة الشيخ إلى صباه ..

نعم ، يمكن أن يكون تقريعه بشدة تعويضًا نفسيًا مناسبًا وإن كان لن يشفى غليلى كلية ..

هو شريك بصورة أو بأخرى وعليه أن يتحمل ..

نهضت دون أن أحمل عصاى المُسندة فى مكانها إلى جوار السرير ، وفى إسراعى المنفعل إلى باب الحجرة حدث ما حدث ..

سقطتُ على الأرض الخشبية مثل كيس محشو بالقطن ..

طرقع مفصل فخذى الأيسر بطريقة أفزعتنى ، ثم .. .

الألم الرهيب ..

وصرخة هائلة هزت جدران الطابق السفلى ..

وأخيرًا ، فقدان تام للوعى ..

وعالم من ظلام أسود دامس ..

* * *

(٤)

شهران ..

المشهد من هنا ثابت تقريبًا : مربع زجاجى تتراءى من خلفه فروع الشجرة الكثيرة المتشابكة والعامرة بالورق الأخضر وأعشاش الطيور التى تغرد فى الفجر ، حتى أنها توقظنى من النوم على ترانيمها الطقسية المبكرة ، بانتظام يومى طوال الشهرين الماضيين ..

نافذة وحيدة أطل منها على العالم الخارجى ، وأفكر ..

وأتغير إلى حد الانسلاخ من الجلد القديم ..

تضع (أم محمود) ملعقة الطعام المهروس عديم الطعم والرائحة فى فمى ، فألوكه ببطء دون اشتهاء ، وأنقل بصرى من عمق الطبق المستقر فوق الصينية أمام صدرى ، إلى رداء المستشفى الرسمى الذى يغطينى حتى ساقى المعلقة إلى أعلى ، والتى يحيطها الجبس حتى قمة مفصل الفخذ الأيسر ؛ المفصل الذى تهشم فى حادث سقوطى داخل غرفتى قبل شهرين ، كما أفصحتْ الأشعة السينية فى جلاء ..

عندما سقطت فى غرفتى وقتها رجت صرختى المنزل القائم على البحيرة ، أخال أنها هزت سطح البحيرة الساكن دومًا نفسه ، فهرعت نحوى (أم محمود) وحارت ماذا تفعل ، كادت تنهضنى

لكنى حذرتها من مغبة تحريكى فى شراسة ، وطلبت منها أن تطلب رقم الإسعاف على الفور ..

كان ألم الفخذ مبرحًا ، لا يطاق ، وكان غباؤها هو الآخر لا يطاق وهى تسألنى عن رقم الإسعاف ، ورغم كل ما أكابده تذكرت النكتة الأمريكية السخيفة التى يتصل فيها الرجل بخدمة الدليل الهاتفى ليسأل عن رقم خدمة ٩١١ للإنقاذ !

من بين ضروسى خرج الرقم ممجوجًا ، وجاءت سيارة الإسعاف بعد دهر استمر أكثر من نصف ساعة مت خلالها آلاف المرات ، حتى وصلوا بى إلى هنا ، وبدأت حرب المسكنات العنيفة ..

شهران وأنا طريحة الفراش ، تساعدنى (أم محمود) على مهام الحياة البسيطة من أكل ومشرب وتغيير ملابس ، أقضى حاجتى فى كيس القسطرة الشفاف أو وعاء البلاستيك المقرف ، لا أرى إلا النافذة وبعض الزائرين القلائل من أمثال الدكتور (خالد) الذى يزورنى بصفة يومية ، وأحيانًا أكثر من مرة فى اليوم الواحد ، حتى أنى نسيت مسألة تقريعه تمامًا فى خضم الألم والمعاناة التى لا تقهرها أعنف المسكنات أحيانًا ..

تأتى الورود وتبقى حتى تذبل ، تأتى بلا بطاقات ، باقة يومية وحيدة لا أهتم بالسؤال عن صاحبها ، ليكن من يكون فالمهم هو الحقيقة التى أحاول صيدها من بين فكى (خالد) فى صعوبة :

ـ هل هناك أمل ؟!

ـ يفكر الدكتور (صالح) رئيس قسم العظام فى إجراء عملية تبديل للمفصل المتهتك بآخر معدنى ، ولكن ..

لكن !

مفهوم طبعًا ..

التئام كسور المفصل عملية صعبة أصلاً خاصة لو خرج الرأس من تجويفه فى عظمة الحوض ، فما بالك بعظام امرأة مثلى بلغت سن اليأس منذ زمن طويل ، وجفت منابع الإستروجين لديها تاركة عظامها نهبًا للأندروجينات المفترسة للكالسيوم ؟!

هرمونات الأنوثة تهب الحياة وهرمونات الذكورة تطحنها طحنًا ، الأنثى تهب الحياة والذكر يمتصها فى طيش لا يعرف الهوادة ، مفهوم بالطبع !

ـ فى النهاية ، هل هناك أمل ؟!

يمط (خالد) شفتيه ، ينكس رأسه وينظر إلى الأرض ..

ـ أمل ضعيف ، مفهوم بالطبع ..

أقولها محاولة التظاهر بالتماسك ، وأنظر إلى باقة الورد الجديدة التى لم تذبل بعد بجوارى ، وأتذكر تأملات (أمل دنقل) على فراش الغرفة رقم (٨) ..

* * *

وسلال من الورد ،

ألمحها بين إغفاءة وإفاقة

وعلى كل باقة

اسم حاملها فى بطاقة ..

* * *

هذه لا تحمل بطاقة أو اسمًا ، تحمل فقط شبابًا ووعدًا بالحياة ..

(حياة جديدة) ..

تطول أيامى هنا فى المستشفى ..

يهاجم الألم دون استئذان ويتباعد الأمل فى الشفاء والنهوض من جديد ، ويتطاول ظل التهديد بأن أعيش ما تبقى لى من الحياة فى هذا الجحيم ..

فجأة ، لا يبدو العرض الذى قدمه لى (نعمان) قبل موته ــ أو بعده ـ على هذا القدر من الجنون واللاأخلاقية ..

فجأة يبدو ملاكًا رحيمًا لا شيطانًا يريد روحى فى مقابل الخلود ..

فجأة أتعاطف مع موقفه وأحبه أكثر مما يمكن أن أتخيل ، وأشتاق إليه شوقًا لم أعرفه من قبل ..

أتذكر صوته على شريط الكاسيت الذى لم يعد موجودًا :

ـ تفاصيل التقنية كلها مع (خالد) !

لكن .. كيف أسأل (خالد) ؟!

بأى كلمات أوجه له السؤال ؟!

أسأل (أم محمود) أولا :

ـ أين شريط الكاسيت الممزق الذى كان فى غرفتى عندما سقطت ؟!

تجيبنى :

ـ موجود يا دكتورة ، لن أرمى شيئًا دون الرجوع إليك كما أمرتنى مرارًا ..

ليس هذا ما أريده :

ـ والمظروف ؟!

ـ والمظروف أيضًا موجود ، لملمت كل شىء ووضعته فى درج الكومود المجاور لسريرك ..

أطمئن ، وأحاول التلميح لـ (خالد) فى زياراته المتكررة ..

ـ هل تريدين أن تقولى شيئًا يا دكتورة ؟!

ـ لا شىء ..

وأصمت ..

تبًا لضميرى !

لكنى بعد موجة ألم رهيبة أضرمت النيران فى فخذى الأيسر ، انهارت آخر حصون مقاومتى ..

ـ (خالد) ..

ـ إنى معك هنا يا دكتورة ، هل تريدين حقنة مخدر أخرى ؟!

ـ لا ، لكن .. (نعمان) ..

ـ ماذا عنه ؟!

كنت ألهث ، وقطرات العرق تنهال من مفرقى إلى عينى وشفتى ، لذا لم أكن قادرة على تكوين جملة طويلة ومفيدة ..

بعض الاختصار يفيد أكثر ..

ـ (حياة جديدة) ..

وجم (خالد) للحظات ليست قليلة ، قبل أن يتراجع بظهره إلى مقعده ، ويحدق فى مليًا بينما أعض على شفتى فى مقاومة يائسة ..

ـ المظروف الذى أعطيته إياى كان يحوى شريط تسجيل ، أخبرنى فيه (نعمان) كل شىء قبل أن ...

ولم أقو على الإكمال ..

هز (خالد) رأسه :

ـ مفهوم طبعًا !

هكذا بدأ كل شيء بدايته الحقيقية ..

شرح لى (خالد) تفاصيل البرنامج الجراحى الذى لم أكن أحتاج إلى شرح له بعد ما قام به (نعمان) مشكورًا بالتفصيل فى تسجيله الصوتى ..

أحضر لى (خالد) نشرات دعائية كثيرة يلمع فوق ورقها المصقول شعار (حياة جديدة) بلغات العالم كلها ، مع وعود لا نهائية بالسعادة والمتعة والحرية والانطلاق والشباب مرة أخرى ، حتى الإعلانات المصورة شاهدتها على حاسوب (خالد) النقال ، ولم يبق إلا أن نتقدم الخطوة الأمامية المرعبة والحتمية ..

خطة التنفيذ الفعلى ..

* * *

فى ليلة تعالى فيها شخير (أم محمود) من فوق الأرض بجوارى ، حيث تنام المرأة مبكرًا ولا تستيقظ إلا إن ناديت عليها لقضاء حاجة لى .. فى تلك الليلة أتانى (خالد) ، وكانت النافذة الوحيدة مفتوحة ، تهب منها نسائم باردة ألقتها يدا شتاء لم يحل بعد ، وكان الضوء ينعكس من فوق رأسى على ملامح وجهه وهو يدنو من سريرى ، ويدنو ، معطيًا كل شيء إيحاء سحريًا غير واقعى بالمرة ..

اقترب (خالد) ، انحنى فوقى حتى لفحت أنفاسه وجهى ، أمسك بيدى وسألنى بصوت لم يكن صوته تقريبًا :

ـ جاهزة ؟!

أجبته وأنا أتحامل على نفسى حتى أظل يقظة ، بعد جرعة المسكن الرهيبة التى تم تحميلها فى أوردتى :

ـ جاهزة ..

ـ سيأتى مندوب المؤسسة هذا الأسبوع إلى (مصر) ، سيحمل معه الأوراق اللازمة ويحصل على توقيعك .. ألا تفكرين فى الانسحاب؟

ـ كلا .. سأوقع ..

ـ لكن ..

واختفى من أمامى ، أو أننى أنا التى سقطت نائمة ، ربما مغشيًا على ..

* * *

فى اليوم التالى طلبت من (جلال) السائق أن يحضر لى بعض الأشياء فى صندوق كرتونى من المنزل ، وأرسلت معه (أم محمود) لتعاونه ، كان أهم هذه الأشياء قطعًا المظروف الذى يحوى رقم الحساب البنكى السويسرى السرى الذى أخفاه (نعمان) عنى طوال العمر ..

لأتجاوز عن تقييم مشوار حياتنا الآن ، ولأشعر بالامتنان نحو (نعمان) حتى الذروة ..

أثناء غياب الجميع ، وأنا وحدى فى الغرفة ، دخلت متسللة نحوى فى خفة ، فلم أشعر بها إلا وهى تقفز فوق جسدى المسجى فوق سرير الآلام ..

كانت قطيطة صغيرة ماءت فى وجهى وأخذت تلعقه بلسانها ، فيما أنا متجمدة كحجر فى مواجهتها ، عاجزة عن الإدراك أو حتى الصراخ ..

ـ آسف يا (تانت) ..

نداء من جهة الباب ، التفت على إثره لأراه واقفًا هناك ..

طفل صغير فى رداء منزلى ، عيناه ذكيتان وحادتان ، نحيل ورأسه حليق تمامًا ، ينظر نحوى ويشير إلى القطيطة التى توقفت عن لعق وجهى وأخذت تنظر إليه بدورها :

ـ إن (تمارا) شقية جدًا كما ترين ..

ابتسمت لمرأى الطفل ، وهززت رأسى فى تفهم إذ أسأله :

ـ ما اسمك يا حبيبى ؟!

أجابنى وهو يهبط بيده التى كانت تشير نحوى إلى جواره :

ـ (كريم) .. جارك فى الغرفة المجاورة ..

همست فى تعاطف :

ـ مريض ؟!

هز رأسه بالإيجاب ..

ـ أليس دخول الحيوانات الأليفة إلى المستشفى ممنوعًا لأسباب صحية ؟!

اقترب منى باسمًا وهو يشير إلى القطة :

ـ بلى ، حاولوا إبعادها عنى مائة مرة ، لكنها دوما تغافلهم وتعود .. لتحفظى هذا السر بيننا يا (تانت) .. يبدو أن (تمارا) قد أحبتك من النظرة الأولى !

نظرت إليه أبادله البسمة بأخرى ، وعجزت عن إيجاد مزيد من الجمل لأتواصل معه ، فهو أحد الأطفال النادرين الذين حادثتهم على مدى عمرى الطويل .. أستطيع أن أعدهم على أصابع يدى دون أن أبالغ ..

ـ هيا يا (تمارا) ..

حرك سبابته لها فأطاعته (تمارا) الصغيرة ، وهرولت نحوه فى طواعية عجيبة ، ليختفيا خلف الباب المفتوح ..

فيما بعد عرفت أن (كريم) هو ابن رجل على باب الله ، يتم علاجه هنا فى القسم المجانى من وحش (الليموكيميا) أو سرطان

الدم ، العلاج هـو السبب فـى تساقط شـعر رأسـه ونحولـه ، وهـو السبب فـى صرخاتـه التـى تبلغنـى مـن غرفتـه المجـاورة عندمـا يحقنونه بالعلاج المؤلم ، وهو السبب فـى دفـع معانـاتى إلـى ذروة التوق للانعتاق منها بأى ثمن ..

★ ★ ★

فى نفس الأسبوع ، وصل الدكتور (توم كوارتز) إلى (مصـر) حسبما قال (خالد) ..

ـ الدكتور (كوارتز) هو أحد أعضاء مجلس إدارة المؤسسـة ، بريطانى الأصل ، وأحد أساتذة المخ والأعصاب المتفردين فـى العالم .. سيزورك هنا فى المستشفى غدًا لإنهاء الأوراق ..

ولم ينس أن يسألنى للمرة الأخيرة :

ـ ألا تفكرين فى الانسحاب ؟!

لم أرد ، وفهم (خالد) أن السكوت لا يعنـى الرضـا دومًـا ، إنـه يعنى ما يتجاوزه فى أحايين أخرى ، مثل هذه ..

جاء الموعد ، ووصل الدكتور (كوارتز) إلى غرفتى ..

خمسينى هو ، أصلع الرأس ، أشيب الشـعر ، أزرق العينيـن ، ممتلئ القوام ، يرتدى بذلـة مـن الصوف الإنجليزى الفـاخر ذات ذوق عال وألوان متناسقة ، يحمل حقيبـة صغيرة من الجلد الطبيعـى الأسود ، وقد صافحنى قائلاً فى لهجته الممضوغة كديدن الإنجليز :

ـ كيف حالك يا سيدتى ؟!

قلت عكس ما أشعر به :

ـ بخير ..

ـ أتعشم أن تظلى كذلك فى ظل ما نسعى لإحرازه معًا ..

وجلس على المقعد إلى جوارى ليفتح قفل حقيبته ، بينمـا وقـف (خالد) إلى جواره كالديدبان يراقب كل ما يجرى من علٍ ..

أخـرج (كوارتـز) بعض الأوراق وناولهـا إلـى مـع قلـم مذهـب استله من جيب سترته ، ثم هبت العاصفـة الإنجليزيـة البـاردة من بين شفتيه :

ـ هل تحبين أن تقرئى كل شىء على انفراد أولا ؟!

هززت كتفى ـ أو ما تبقى منهما بعد هزالى الرهيب طوال فـترة المرض ـ قائلة :

ـ كلا ، سأوقع على الفور .. قل لى أين فقط ..

وقـال لـى أين ، فرسـمت توقيعـى بيـد مرتعشـة علـى صفحـات وصفحات وصفحات ..

تناول (كوارتز) أوراقه فى رزانة ولاحـت بسـمة شـبحية علـى محيا (خالد) سرعان مـا تلاشـت ، فـى حين أخـرج الأول مجلدًا كبيرًا من الحقيبة وناوله إياى ..

ـ عليك الآن أن تختارى بنفسك وعاء شخصيتك الجديدة ..

تناولت المجلد مبهورة ، وتطاير كل إحساس بالألم راودنى وكل إحساس بالقلق طاردنى وكل إحساس آخر حاول أن يقترب من حدود مملكتى ..

كنت قد تحولت إلى حالة من الانبهار الخام لو جاز الوصف ..

هذه لحظة خاصة جدًا ، شديدة التميز والتفرد ، لحظة اختيار أنا الأخرى ..

أنا الجديدة ..

فتحت المجلد وعبرت البوابة المسحورة إلى عالم آخر ملىء بالصور الملونة والعيون الناعسة والوجوه الفتية والشفاه والخدود والرموش والنهود والقدود ، عالم من الورود التى تنتظر من يقطفها للاستمتاع بمرآها وبعطرها وبشبابها المتجدد حيوية وتألقًا ..

* * *

تتحدث لى الزهرات الجميلة

أن أعينها اتسعت ـ دهشة ـ

لحظة القطف ،

لحظة القصف ،

لحظة إعدامها فى الخميلة!

* * *

فتيات وفتيات ..

الطويلة والقصيرة .. الشقراء والزنجية .. المراهقة والناضجة .. البدينة والرفيعة والمتناسقة .. الشرقية والغربية .. يمكن لأى من هؤلاء أن تكون أنا القادمة ..

* * *

تتحدث لى

أنها سقطت من على عرشها فى البساتين

ثم أفاقت على عرضها فى زجاج الدكاكين ، أو بين أيدى المنادين

حتى اشترتها اليد المتفضلة العابرة

* * *

فتيات وفتيات ..

من أين أبدأ وكيف يمكن أن أنتهى ؟!

أى وجه أحب أن أراه فى المرآة عندما أصحو من نومى كل يوم حتى أبلغ شيخوختى الأخرى ؟!

* * *

تتحدث لى

كيف جاءت إلىّ

(وأحزانها الملكية ترفع أعناقها الخضر)

كى تتمنى لى العمر!

وهى تجود بأنفاسها الأخيرة!!

★ ★ ★

وربما عندما أبلغ شيخوختى الأخرى يمكن أن أزرع مخى فى جسد آخر ، لتبدأ دائرة من الحياة المستمرة التى لا تنتهى إلا عندما يأذن لها خالقها ، كأن يصاب المخ بعطب عضوى مثلا ..

عنى أيتها الأفكار السوداء ، كفانى ما لقيت منك طوال حياتى المملة ، اتركينى أبدأ حياتى الجديدة بأفكار أخرى أكثر تفاؤلا وأقل كآبة ..

قتلتنى الحيرة قتلا ، لأول مرة أشعر أنى أنثى حائرة أمام اختيار متعدد يتطلب وقتًا وحكمة ، طوال عمرى كنت أستهجن عادات النساء فى الوقوف منبهرات أمام عشرات الأحذية والحقائب والأثواب حتى تعثر إحداهن على ضالتها بشق الأنفس .. كنت رجالية الطباع ، أشترى حاجياتى بسرعة ولا أتوقف كثيرًا أمام التفاصيل .. الآن فقط يجرفنى تيار الحيرة أمام كل هذا المعروض من فتيات !

الاختيار مصيرى ، وعيون (كوارتز) و(خالد) تحدق بى فى انتظار لا ينقصه الفضول الإنسانى المقيت الذى قتل القط ، كما يقول قوم هذا الرجل المتأنق الجالس بجوار سريرى ..

كنت أقلب صفحات مجلد الصور وأتساءل : لماذا أختار هذه وأترك تلك ؟! أو أختار تلك وأدع هذه ؟!

ثم تلكأتُ قليلا عند مجموعة من الصور ، وأخذت أنظر إليها فى إمعان لا بد أنه قد لفت انتباه الناظرين نحوى ، كما لا بد أجج من فضولهما المستعر ..

الآسيويات ..

ملامحهن مميزة للغاية ، العيون الضيقة ، عظام الوجنتين البارزة ، الأنف المستدير والفتحتان المحددتان كأنهما مرسومتان بالقلم الفلوماستر ، والشفتان الممتلئتان العريضتان بامتداد أسفل الوجه ، والشعر الناعم فى حريرية ..

فيهن جمال شرقى غامض يشع من مصدر خفى كشمس بعيدة مختبئة خلف الغمام ..

يقولون إنهن متشابهات حتى أنه يصعب تمييز واحدة عن أخرى ، وفى رأيى أن من يقول ذلك إنما يقوله عن استسهال أو عن جهل متسرع وانعدام ذوق ..

إن العبقرية الحقيقية فى هذه الملامح هو تقاربها إلى هذا الحد ، وفى نفس الوقت تعددها وانقسامها إلى ملايين الهيئات والسمات الدقيقة غير المتطابقة ، مثل فيروس تحور إلى ملايين الأنواع دون أن يفقد مادته الوراثية الأولية ..

أى جمال عبقرى يحمله هذا التوحد المتعدد ؟!

تباطأت حركتى ونظراتى بشدة ، حتى تصاعدت سبابتى وأشارت إليها :

ـ هذه ..

سحبا المجلد إلى جهتهما معًا ، ونظرا إلى حيث أشرت ..

فتاة آسيوية ملامحها عذبة وبريئة ، لو تغاضينا عن جمود الموت فى ملامحها ..

فتاة تتجلى فى سيمائها عبقرية الملامح الآسيوية التى أعتقدها ..

ـ لا بأس ..

ـ هذه هى إذن ..

تعليقهما ، ثم أمسك (كوارتز) بقلمه المذهب سائلا :

ـ هل تريدين أن تطلقى عليها اسمًا معينًا ؟! أعنى اسمك أنت مستقبلا يا سيدتى ..

لمحت علبة السجائر الفاخرة فى جيب سترته لكنى لم أهتم وتساءلت :

ـ هل يمكن أن يكون اسمًا إنجليزيًا ؟!

ـ كما تحبين ..

ولم أفكر كثيرًا ، فما زالت ذكرى نزوة (نعمان) الأولى تلح على مخيلتى المتعبة ، ومازالت صورته معها واضحة تمامًا أمام عينى المنهكتين :

ـ (جيسيكا) !

لأمضى بعقدى النفسية جميعها إلى حافة النهاية بلا رجعة ..

ـ ليكن ، لننتظر ميلاد الآنسة (جيسيكا) قريبًا جدًا ..

قال (خالد) :

ـ سوف نحتاج إلى اسم ثلاثى حتى يتسنى للمحامى الخاص بك أن ينقل لها جميع ممتلكاتك ..

ـ ضع أى اسم أوسط واسم عائلة تحبهما ، المهم أن يكون اسمى الأول هو (جيسيكا) ..

إصرار !

نهض (كوارتز) قائلاً :

ـ لا بأس ، سوف ننتظركِ فى مقر المؤسسة بعد أسبوع واحد على الأكثر للشروع فى إجراءات فحص ما قبل الجراحة ..

بهذه السرعة إذن ..

ـ إلى اللقاء يا سيدتى .. أراكِ قريبًا ..

وقاده (خالد) إلى الخارج ، ثم عاد ليقول بنبرة منخفضة :

ـ الأمر سيظل سرًا بيننا ، حتى المحامى لن يعرف شيئًا عن (جيسيكا) أكثر من كونها الشابة التى ستنتقل إليها كل ممتلكاتك دون إبداء أسباب .. اتفقنا ؟!

قلت متجاهلة قوله المكرر إلى حد الامتعاض :

ـ إليك قراراتى الأخيرة كـ (عصمت) .. أولا إعفاء (أم محمود) وأخيها من الخدمة نهائيًا ..

أعلم أنه ستكون هناك دموع وتوسلات وابتزاز عاطفى بمسألة قطع الأرزاق ، لكنى حسمت أمرى مبكرًا ولن أتراجع ..

سأبدأ حياتى الجديدة نظيفة تمامًا من كل شوائب الماضى ، كلها بلا استثناء ..

ـ عليك أن تبيع سيارتى (البيجو) بأى ثمن ، وتخلص أيضًا من كل ملابسى ومتعلقاتى وحتى كتبى القديمة .. بالذات عصاى التى كنت أتوكأ عليها قبل أن آتى إلى هنا ..

قال (خالد) :

ـ أعلم القرار التالى ، لن تحضرى حفل التقاعد الذى تنظمه الكلية لتكريمك ..

قلت باسمة :

ـ أنت تلميذ نجيب حقًا ..

ـ أعلم أنك تريدين نسيان الماضى برمته ، ولا ألومك على هذا بالطبع ..

ماذا ستفعل إذن لو علمت أكثر ؟!

ـ الآن أتركك لتنعمى بأيامك الأخيرة قبل الجراحة ..

ـ لن أراك حتى وقتها ؟!

ـ سأراك قبل السفر مباشرة ..

ـ إلى حيث لا أعلم أين .. هه ؟!

ـ إنه اتفاق السرية الذى وقعت عليه لتوك !

ـ أعلم .. أعلم .. أغلق الباب خلفك بإحكام فقط ..

خرج (خالد) ، وأغلق الباب خلفه بإحكام ..

وحدى ، وباقة الزهور البيضاء الواردة صباح اليوم ..

أمد يدى إلى داخل الصندوق الكرتونى المجاور للسرير ، الذى أحضره (جلال) قبل أيام من المنزل ، وأخرج منه صورة مؤطرة لـ (نعمان) كانت تحتل صدر الصالة ..

أنظر إليها مليًا ، وأضمها إلى صدرى فى حنان ..

شكرًا يا نديم الروح ..

أقبّل الصورة ، وأقرر أن أنام محتضنة إياها هذا المساء ..

أميل نحو باقة الزهور ، وأقطف زهرة أشم عبيرها ، وأمد يدى إلى الصورة مبتسمة كأنى أهديها إلى (نعمان) ..

ودون أن أنتبه ، تجرح شوكة فى ساقها يدى ..

وتتلوث صورة (نعمان) ، بنقاط الدم !

* * *

كل باقة

بين إغماءة وإفاقة

تتنفس مثلى ـ بالكاد ـ ثانية .. ثانية

وعلى صدرها حملت ـ راضية

اسم قاتلها .. فى بطاقة !

* * *

عندما نمت ليلتها ، لم توقظنى زقزقة عصافير الشجرة فى الفجر كما تفعل كل يوم ، كأنها جميعًا قد رحلت بلا رجعة ، أو كأنها جميعًا تعتصم بأعشاشها ..

فى صمت رافض !

* * *

الجمال الآسيوى

(١)

دلفت سيارة الأجرة الفارهة من طراز (المرسيدس) إلى القرية السكنية الصغيرة المطلة على البحيرة ، وتوقفت أمام واحد من منازل الصف الأول المطلة على الشاطئ مباشرة ، ليطفئ سائقها الكهل أنوارها الأمامية ، ثم ينظر إلىّ فى جلستى المنكمشة على الأريكة الخلفية ، سائلا :

ـ هل هذا هو العنوان الصحيح يا آنسة ؟!

ابتسمتُ فى عذوبة وأنا أقول بصوتى الرقيق الذى لم آلفه بعد :

ـ هو ، أشكرك ..

هبط الرجل ليُنزل حقيبتى من خلفية السيارة ، وإذ أضاء مصباح السقف مع تكة انفتاح الباب ، استطعتُ أن ألقى بنظرة أخرى على وجهى الجديد فى المرآة التى تتوسط الزجاج الأمامى ..

وجه فتاة آسيوية لم تتجاوز الثامنة عشر على الأكثر ، لكنها تتحدث العربية بطلاقة امرأة ؛ كانت على استعداد لتوديع العالم منذ أسابيع قليلة ماضية ..

سافرتُ مع (خالد) فى طائرة طبية خاصة بمؤسسة (حياة جديدة) إلى مكان أجهله ، كل ما استطعت الحصول عليه لم يكن أكثر من جملة مقتضبة قالها والطائرة تحلق عاليًا :

ـ بقعة ما فى قلب (آسيا) ..

قدمى فى الجبس وقلبى القديم يرجف وعقلى مشتت إلى مليون قطعة ومتناثر كشظايا النجوم على صفحة الليل السوداء ، أما مخى فقد نقلوه إلى جسد هذه الفتاة التى تهبط من السيارة الآن ، يلفح الهواء الشتوى البارد وجهها / وجهى فتلملم أطراف معطفها الثقيل ، وتتأمل بعينيها الضيقتين زوايا المنزل المهجور الغارق فى السكون ، وتبتسم / أبتسم ..

كل شىء يبدو جديدًا وقديمًا فى الوقت نفسه ، رأيته ولم أره من قبل ، كأنى ولجت أعتاب حلم لا أدرى كيف بدأ وإلى أين ينتهى ..

يضع السائق الكهل الحقيبة الوحيدة أمام باب المنزل ، وينظر إلى ارتفاعه وحجمه ، ثم يعدل من وضع القبعة الرسمية فوق رأسه ، وتدفعه حداثة عمرى / عمرها إلى جرأة السؤال المندهش :

ـ هل تسكنين فى هذا المنزل كله وحدك ؟!

تتسع بسمتى / بسمتها ، وأجيبه / تجيبه :

ـ أجل ..

يحدق فى انعكاس القمر والأضواء البعيدة على الوجه الصغير ، وينعقد لسانه ..

ـ هل يبدو الأمر غريبًا إلى هذا الحد ؟!

أسأله ، فتنفك عقدة لسانه عن :

ـ أعنى أنك صغيرة السن جدًا على وضع كهذا ، إنك أصغر من أصغر بناتى .. ولم أقابل فى حياتى فتاة مثلك تأمن على نفسها السكن وحيدة ..

فى هذه لديه حق ، فكرت فى هذا وتوصلت إلى حل ما بينى وبين نفسى :

ـ لن يستمر الحال على هذا طويلاً ، سيأتى من يرافقنى فلا تقلق ..

لو كنت (عصمت) الآن لنهرته وزجرته وأنبته على دس أنفه فى ما لا يعنيه ، لكنى الآن (جيسيكا) الصغيرة المقبلة على الحياة والتى لا تطيق أن تؤذى مشاعر أحد ..

ودعنى السائق بعد أن اطمئن على إغلاقى الباب على نفسى بإحكام ، وسمعت صوت دوران المحرك فى الخارج وأنا ألقى بجسدى الصغير على الأريكة فى حرية لم أعرفها منذ زمن بعيد ، أو ربما لم أعرفها طوال عمرى أصلاً ..

وداعًا يا (عصمت) ، وداعًا إلى الأبد ..

ألقيت بنظرة شاملة على المكان الخاوى كأنه قاع مقبرة ، رأيته بعينى (جيسيكا) مختلفًا بشدة ، لكم هو واسع ورطب ومقبض ومغطى بالعناكب والغبار والكآبة ، وكان قرارى الأول بينى وبين نفسى / نفسها أن علىّ البحث عن مكان آخر للسكنى ..

لن أترك هذه المدينة ، فأنا أعشقها وستعشقها (جيسيكا) الجديدة التى هى أنا بالتالى ، لكنى تشاءمت من ريح هذا المكان الكئيبة ، أريد مكانًا آخر أقل اتساعًا وأكثر حيوية ، أريده عاليًا أستطيع رؤية المدينة كلها من خلاله ، كفانى من الشرفة ومن النوارس ومن البحيرة ومن قهوة الغروب منزوعة الكافيين طول السنين الماضية ، أريد أن أبتلع كل الكافيين الموجود فى العالم داخل جوفى / جوفها لو كان هذا ممكنًا ..

فى ركن بجوار الباب رأيت بعينيها الصندوق الكرتونى الذى أحضره لى (جلال) فى المستشفى ثم أعاده إلى هنا قبل سفرى إلى الشرق الأقصى ، والذى يحوى ألبومات الصور وإطارات الشهادات التى كانت معلقة على الحائط مع بعض الأشياء الأخرى الحميمة ..

أو التى كانت حميمة ..

نهضت وأخرجت صورة (نعمان) التى نامت فى أحضانى ليلة توقيع العقد ، سأحتفظ بهذه فقط وأول ما أفعله غدًا عند صحوى من النوم سيكون التخلص من كل هذه الروبابيكيا ..

هذا هو قرارى الثانى !

(عصمت) لن تحتاج لأى منها مرة أخرى ، (عصمت) انتهت بالنسبة للعالم كله ، سيتولى (خالد) إشاعة نبأ انتقالها للعلاج والإقامة فى الولايات المتحدة الأمريكية ، وسينسى الجميع أمرها بالتقادم ، ولن ينتبهوا إلى أمر الطالبة الجديدة التى وفدت إلى الكلية من (الولايات المتحدة الأمريكية) أيضًا حاملة اسم (جيسيكا) ، والتى ستنتظم فى صفوف طلاب السنة الرابعة بمجرد أن ينتهى الدكتور (خالد) من إجراءات تسجيل دخولها ودفع الرسوم الشرعية وإكراميات ما تحت الطاولة من أجل أن يتم كل شىء بالسرعة المطلوبة ..

نعم ، سأعود طالبة فى كليتى التى أنشأتها تحت مظلة هويتى الجديدة !!

أى متعة تنتظرنى هناك ؟!

بل أى متع بانتظارى فى شسوع هذه الحياة الجديدة التى أستقبلها بذراعين مفتوحتين وآمال بعرض الكون ؟!

الجوع ..

قرصنى الجوع وعندما فتحت الثلاجة امتعضت وتذكرت النظام الغذائى المقيت الذى كنت أسير عليه فى أواخر أيامى كـ (عصمت) ، ألقيت بكل محتويات المطبخ من حبوب قمح جافة ومعلبات صحية فى صندوق المخلفات الحميمة ، وهرعت إلى

الهاتف لأطلب وجبة دجاج ساخن بالشطة ، ثـم فتحـت التليفزيـون على إحدى قنوات الأغانى الفضائية وأخذت أتابعها فى شغف ..

لم أكن أعرف أو أتوقع أن تكون التفاهة ممتعة إلى هذا الحد !

بقدرة قادر لـم تعد الإيقاعـات السـخيفة سـخيفة ، ولا الكلمـات المبتذلـة مبتذلـة ، ولا ملابس المغنيـات سيئة ، ولا إكسسـوارهن كذلك ، حتى أنى أخذت أدقق فـى التفـاصيل وأنـوى شـراء بعض الحاجيات المشابهة فور نزولى إلى (القاهرة) غدًا أو بعد غد ، عندما يُحضر لـى (خـالد) مفـاتيح سيارتى (الجرانـد شيروكى) الجديدة التى أوصته (عصمت) بشرائها لى فور عودته إلـى هنـا قبلى !

لابد أن أعيش حياتى جيدًا ، لابـد لـ (جيسيكا) أن تعوض (عصمت) عن كل شيء لم تفعله فى حياتها ، لابد أن أتـرك لكل رغباتى كفتاة فى ريعان الصبا العنان ، وألا أبخل على نفسى كما أوصانى (نعمان) نفسه قبل أن يرحل ..

مضى ما مضى ، وما هو آت آت ..

ألقيت فـى صنـدوق المخلفـات أيضًـا بمجموعـة أسـطوانات وشرائط الموسيقا الكلاسيكية التى كـانت تغسل أذنـىْ (عصمت) فى أوقات التجلى ، لن أحتاج لها وأنا أرقص فى خفة فراشة على نغمات الأغنية التى لم تبد سيئة كما بدت قبل أسابيع ..

مشتاقة .. يا حبيبى ..

مشتاقة .. والغربة سرّاقة ..

فين عيونك فين ؟!

صوتى لم يكن سيئًا أيضًا ، لا يدوى فى أذنى الجديدتين غليظًا مشروخًا كصوت (عصمت) فى أواخر أيامها ، لا أتذكر أن صوت (عصمت) كان رقيقًا ناعمًا يومًا مـا ، لا أتجنى عليها لكنـى لا أدعى الموضوعية أيضًا ..

المجد للعود الأخضر الغض والموت للتجاعيد الكريهة ..

تناولت طعامى بشـهية ، وجعلتنـى نظرات الشـاب الـذى تولـى توصيل الطلب إلى هنا أفكر فى الأمر مـرة أخـرى وبجديـة أكبر : يجب ألا أسكن وحدى حتى لا أكون نهبًـا للأطمـاع الغريزيـة التـى يثيرهـا وضعـى الجديد كفتـاة وحيدة تملـك الكثـير مـن الجمـال والنقود ..

نظفتُ إحدى غرف الطابق الثانى دون عناية ، وبعد نوم قصـير أيقظتنى طرقات على باب المنزل فى وقت مبكر من النهار .. دقت خطواتى فوق سلم المنزل الخشبى بإيقاع راقص ، ولم أنتبـه إلـى أنى أفتح البـاب بثيـاب المنـزل إلا عندمـا قـابلتنى بسـمة (خـالد) المتأملة فى إعجاب :

ـ صباح الخير أيها الجمال الآسيوى ..

احمر وجهى / وجهها خجلا :

ـ معذرة ، لم أعتد على حياة فتاة صغيرة بعد .. امنحنى وقتًا !

تناولتُ المبذلة من الحقيبة المفتوحة فى صدر بهو الطابق السفلى وارتديته بسرعة ، و(خالد) يدخل عبر الباب المفتوح من خلفى قائلاً :

ـ لو أنى أجهل كونك أستاذتى القديمة فلربما وقعت فى غرامك من النظرة الأولى ..

قلت ملتفتة نحوه ببسمة عذرية يتوّجها الخفر :

ـ ومن قال أنه يمكن أن أقبل بكهل مثلك ؟!

ضحك ، وهز كتفيه :

ـ إنك تتأقلمين على حياتك الجديدة بسرعة خارقة حقًا يا دكتورة !

ـ كف عن مناداتى بهذا اللقب ، من اليوم أنا (جيسيكا) .. (جيسيكا) فقط ..

ـ ليكن يا آنسة (جيسيكا) ، تفضلى ..

كان يحمل مفتاحًا فى يده ينتهى بميدالية تحمل شعار سيارات (الشيروكى) المعروف ، فطِرتُ أخطفه من يده ، ثم هرعت إلى الباب الخارجى لأراها تقف أمام الباب فى انتظارى ، بلونها البصلى اللامع ، كمهرة أصيلة تنتظر فارسها ..

بالأحرى فارستها ..

ـ (خالد) .. هل قدتها إلى هنا بنفسك ؟!

ـ أجل ..

ـ خسارة ، كنت أتمنى أن أكون أول من تضع قدميها فيها !

ـ لا بأس ، أعتقد أنك أول من سيضع قدمه أو يده فى هذه الأشياء ..

نظرت إليه فوجدته يخرج مظروفًا منتفخًا من جيبه يناوله إياى ، فسألته مستغربة :

ـ ما هذه ؟!

ـ أوراقك ، هويتك الشخصية الجديدة وجواز سفرك الأمريكى وبطاقات الائتمان المختلفة برصيد يتجاوز الـ ٢ مليون دولار .. كل شىء كما طلبته تمامًا ..

تناولت المظروف قائلة فى بسمة امتنان :

ـ أشكرك ، لقد أتعبتك معى حقًا ..

تأمل فى ملامحى / ملامحها لبرهة ، قبل أن يقول محاولاً التغلب على ذهوله :

ـ لقد جاء اختيارك لمظهرك الخارجى الجديد موفقًا إلى حد لم أتخيله يا دكتـ .. أعنى يا (جيسيكا) .. إنى أكاد لا أتعرف على أى من ملامح الدكتورة (عصمت) القديمة ، وهى لعمرى نتيجة مدهشة ، بالذات بالنسبة لى !

قلت وبسمتى / بسمتها تأخذ بعدًا سحريًا متألقًا ألمحه فى انعكاسى / انعكاسها فى مرآة الصالة البعيدة :

ـ أنت لم تر شيئًا بعد .. إن أمامى يومًا حافلا لا أنوى تضييع ثانية واحدة منه ..

وانطلقت نحو الحقيبة أنتقى منها ما يصلح ملابس مؤقتة للخروج ، فسألنى (خالد) :

ـ إلى أين ؟!

ـ سأذهب إلى (القاهرة) للتنزه والشراء ، هل تحب أن ترافقنى ؟!

ـ كان هذا ليسعدنى ، ولكن .. أمامى عمل كثير كما تعلمين .. أقله متابعة عملية تقديم أوراقك كطالبة جديدة لدينا ..

ـ صحيح .. هل تسير الأمور على ما يرام ؟!

ـ حتى الآن لا توجد عراقيل .. لو سارت الأمور بهذا المعدل سيمكنك الانتظام فى الدراسة رسميًا بدءًا من الأسبوع القادم .. رغم أنى لا أجد لهذه الرغبة مبررًا حتى الآن ..

ـ لا تشغل بالك برغباتى ، فالكثير منها سيكون بغير مبرر .. حاول أن تعتاد على جنونى .. بالمناسبة ، هل تعرف أين يمكننى العثور على (أم محمود) ؟!

اندهش ، وسألنى :

ـ ألم تعفها من العمل قبل سفرنا رغم توسلاتها العنيفة بأن تظل معك حتى لو قمت بتخفيض راتبها ؟!

وجمتُ للحظة ، ثم قلت :

ـ أجل ، حدث هذا .. كنت قاسية معها بشدة لا أفهم لها مبررًا .. أعنى أن الدكتورة (عصمت) كانت شديدة القسوة معها .. الآن أشعر أنى بحاجة إلى رفيق سكن ، فمن غير المعقول أن تعيش فتاة فى مثل سنى وحيدة .. أليس كذلك ؟!

ـ بلى ، ولكن .. سأحاول العثور على عنوانها رغم صعوبة هذا .. ولو لم تكن هى فسـ..

قلت فى عناد :

ـ أريدها هى ، وستعثر عليها يا (خالد) ..

ابتسم قائلاً :

ـ الدكتورة (عصمت) تجاهد للطفو على السطح رغم كل شىء ..

هززت كتفى ، وعادت البسمة الساحرة تطفو على وجهى :

ـ لا تتح لها الفرصة لكى تفعل إذن .. وبالمناسبة أيضًا ، حاول أن تجد لى منزلا آخر مساحته أقل بحيث يكون ارتفاعه شاهقًا ، فى أعلى برج بالمدينة .. ولا يهم السعر ..

انعقد حاجباه :

ـ وماذا ستفعلين بهذا المنزل ؟!

ضممت ملابسى إلى صدرى ، وقلت مخرجة له لسانى فى مشاكسة صبيانية :

ـ ليس هذا من شأنك ..

ودعتنى بسمته وعيناه اللتان لا تصدقان بعد أننى الدكتورة (عصمت) ، تلك التى كانت الحياة أضيق بالنسبة لها من ثقب إبرة ، فأصبحت الآن أكثر اتساعًا من مجرة درب التبانة ..

* * *

نهبتْ سيارتى أسفلت الطريق السريع إلى (القاهرة) ، سرعتى الجنونية لفتت أنظار كل من يقودون على الطريق فاستدارت نحوى الكثير من الأعناق ، وتجلى ذهول فى العيون الشاخصة التى اكتشفت أن من تقود فتاة صغيرة لا شاب طائش لم يربه أهله جيدًا ..

ليس اكتشاف هذا سهلاً من مجرد نظرة خاطفة ، فشعر رأسى مازال قصيرًا وإن كنت أنوى إطالته إلى نهايته مستقبلا ، المشكلة أن الوقت لم يمر بما يكفى منذ أزالوا الشعر فى سبيل فتح الجمجمة وزرع مخى ـ أنا (عصمت) ـ داخل جسدى ـ أنا (جيسيكا) !

لقد بدأ المرح يا عزيزتى (جيسيكا) فاغترفى منه حتى الامتلاء ، اضغطى دواسة الوقود بكل قوتك واصرخى مع نغمات البرنامج الموسيقى المندلعة عبر راديو الإف إم فى صخب ..

يا هووووووووووووووووووو ..

من مجمع تجارى إلى آخر ، من متجر ملابس إلى محل إكسسوار ، من معرض أحذية وحقائب إلى توكيل عالمى شهير للعطور ، شراء .. شراء .. شراء .. وأكياس تتكدس فى حقيبة السيارة الكبيرة وتتناثر فى غير نظام على الأريكة الخلفية والمقعد المجاور للسائق ..

تناولت طعامى فى أفخم مطعم للكباب والكفتة وطلبت أغلب أصناف قائمة الطعام ، أكلت آيس كريم وفطيرة بالقرفة وعببت من مشروب الكاراميل الذى أعشقه ، اشتريت أحدث جهاز هاتف محمول وخطًا فوريًا شغلته دون تأخر وهاتفت (خالد) فى سعادة ، دخلت إلى فيلم أجنبى فى السينما وتناولت كيسًا كبيرًا من الفشار وعلبتين كاملتين من المياه الغازية ، وبكيت فى مشهد فراق البطل للبطلة ، تعرضت لمعاكسات الشباب المتسكعين فى الشوارع فرسمت لهم وجهًا غاضبًا متأففًا وابتسمت مغتبطة بينى وبين نفسى ، عرجت على متجر شهير للحلى والمجوهرات وابتعت لى بعض الأساور والعقود والداليات وأعطيتهم بطاقة ائتمانى فى فخر بينما أجرب أسورة جديدة من الذهب الملون أمام مرآة المتجر الكبيرة ، وعندها ..

عندها لاحظت ذلك الجرح فى رسغى الأيمن / رسغها الأيمن ..

الجرح الملتئم الذى يمكن الاستعانة به فى كتب الطب الشرعى كمثال نموذجى لما يمكن أن ينتج عن محاولة انتحار بواسطة موسى حاد ..

كلا ، ليس هذا جرحًا عرضيًّا وأنا أعرف ما أقول ، كنت من المتفوقات فى علم الطب الشرعى كما فى سائر العلوم الأخرى ، وزاوية الجرح وطوله وطريقة التئامه الدالة على عمقه وطبيعة حوافه ، كلها عوامل تؤكد أن صاحبة هذا الجسد قبلى قد أقدمت على الانتحار بهذه الوسيلة المريعة : قطع شريان الرسغ !

فجأة ، أشع ضوء قوى أمام عينى رأيت فيه اللحظات الأخيرة من حياة (عصمت) ، قبل دخولها غرفة العمليات مباشرة ..

* * *

كان (توم كوارتز) يقف إلى جوار سريرى مرتديًا بذلة إنجليزية فاخرة أخرى ، وأنا أترنح فوق حبل الحد الفاصل بين الواقع والحلم ، عندما انحنى نحوى وقال :

ـ استعدى يا دكتورة (عصمت) ، عندما تفيقين لن تكونى أنت التى تعرفينها الآن ..

قالت الدكتورة (عصمت) العجوز فى وهن :

ـ سأكون .. (جيسيكا) ..

انفتح باب الغرفة بغتة ودخل سرير مدفوع على عجلات تصر فوق السيراميك ، واستدارت (عصمت) العجوز لتنظر إلى الجسد المغطى فوق السرير ، جمال آسيوى نائم برأس حليقة مرسوم فوقه بقلم أماكن الفتح الجراحية فى عناية هندسية ..

قال الدكتور (كوارتز) :

ـ سأكون بجوارك فى غرفة العمليات فلا تقلقى ، إن جراحينا من أمهر الكفاءات فى العالم كله ..

سألت بوهن أشد :

ـ أين (خالد) ؟!

ـ سيتابع كل شىء على شاشة خارج غرفة العمليات المزدحمة بما فيه الكفاية .. كنت أتمنى لو كانت لدى المهارة اللازمة للقيام بالعملية بنفسى ، لكنى لست بهذه الكفاءة للأسف ..

قالها (كوارتز) ، ثم ملأت ملامحه الباسمة مجال رؤيتى القريب إذ أضاف بلهجة غريبة :

ـ سأكون بجوارك ، فلا تقلقى !

* * *

وسقط السوار من يدى أمام المرآة فى محل المجوهرات ، ولم أدر بنفسى إلا وأنا أنظر إليها ـ إلى (جيسيكا) الذاهلة فى المرآة ـ فى جزع ، ثم أهرع نحو العاملة التى تجلب لى علبة من الخواتم حتى أنتقى منها ، فأنتزع بطاقتى الائتمانية من يدها ، وأهرول نحو الخارج بينما عيناها تتابعانى فى دهشة متسائلة ..

قدت السيارة فى طريق العودة بتهور أكبر حتى أنى بلغت المنزل فى وقت قياسى ، وفى غرفتى بالطابق الثانى ، بين الأكياس

والأثواب والحاجيات المتناثرة فى كل مكان ، اتجهت إلى الشرفة المطلة على البحيرة من أعلى ، ورأيت شابًا وشابة يسيران معًا يحتضن كل منهما كف الآخر فى رومانسية يسترها سواد الليل ..

لحظتها تأكدت بينى وبين نفسى أنى لم أشعر بالسعادة الموعودة بعد ..

من الذى قال (إن السعادة هو الإحساس الذى تحصل عليه عندما تكون مشغولا لدرجة لا تستطيع معها أن تحزن) ؟!

لا أذكر من ، إلا أنه لم يكن مخطئًا أبدًا فى رأيى ..

مر اليوم سريعًا لكنى لن أقضى أيامى وحيدة ، ولن أترك لنفسى مجالا للانغماس فى خواطر قلقة حول جرح الرسغ الأيمن وهوية الفتاة التى أحتل بمخى جسدها الآن ، لأنى أعرف أن هذا لن يوصلنى إلى شىء ، لتكن قد انتحرت أو حاولت الانتحار وأنقذوها ، لتكن من تكون وليكن موتها قد تم بأى طريقة ، تعددت الأسباب والموت واحد ، الحقيقة الوحيدة الآن أنها قد أصبحت أنا ، وأنا قد أصبحت هى ، اختفت (عصمت) واختفت فتاة من قلب (آسيا) لتظهر (جيسيكا) : كائن جديد تمامًا ومختلف تمامًا عن الاثنتين ..

كان له الحق كل الحق فى الحياة والاختلاط بالآخرين ..

الآخرون ..

عذرًا يا سيد (سارتر) ، ليس الآخرون جحيمًا كما صرخ بطل مسرحيتك (جلسة سرية) ، فالجنة ليست جنة عندما تعيش فيها وحيدًا ، حتى (آدم) لم يستطع أن يحتمل وحدته فخرجت (حواء) من ضلعه لتؤنسه ، فما بالك بالأخيرة التى لم تعتد على حياة الوحدة من الأصل سواء فى الجنة أو خارجها ؟!

أمسكتُ بالهاتف وطلبت الرقم الوحيد الذى أعرفه ؛ رقم (خالد) الذى رد على ضاحكًا :

ـ مكالمتان فى يوم واحد ، لعلى محظوظ حقًا ..

ـ ليتنى كنت فى مثل سعادتك !

ـ ما الأمر ؟! هل كل شىء على ما يرام ؟!

ـ هل عثرت على (أم محمود) ؟!

ـ ليس بعد ، لكن اطمئنى .. لقد أوصيت أكثر من طرف بالبحث عنها ولن يمضى وقت طويل حتى ..

قاطعته :

ـ وإجراءات قبولى فى الكلية ؟!

ـ أخبرتك فى الصباح أنه ...

ـ هل يمكننى الذهاب من الغد ؟!

ـ بالطبع ، ولكن وجودك لن يكون بصفة رسمية ..

ـ لا يهمنى هذا كثيرًا ، أحتاج فقط إلى بعض ثانى أكسيد الكربون .. أنت تفهم ما أعنيه ..

ـ إنك لا تحتملين الوحدة ، ظننت أن الدكتورة (عصمت) قد ...

صرختُ فيه فى غضبة غير مبررة :

ـ لا تنطق باسمها مرة أخرى ، لقد ذهبت إلى غير رجعة .. هل تفهم ؟!

وأغلقت الخط فى وجهه ..

لقد أخبرته فى الصباح أن يستعد لجنونى فى أى وقت وأى هيئة ، المهم أنى غدًا سأكون بين الطلبة فى الكلية ، عدة ساعات ستمضى بطيئة لأنى فقط أريدها أن تمضى ، عدة ساعات ولن أكون وحدى ثانية ..

نمت وأنا أشاهد التليفزيون ، وفى الحلم ، كان وجه (توم كوارتز) يحتل كل المساحات وهو يميل نحو وجهى هامسًا :

ـ سأكون بجوارك ، فلا تقلقى ..

ثم يتراجع ، لأتبين أنه يحمل فى إحدى يديه رأس (عصمت) المقطوع ، وفى اليد الآخرى رأس من تدعى الآن (جيسيكا) !

وفى المرآة القريبة ، استطعت أن أرى عنقى ، دونما رأس فوقه ..

* * *

(٢)

كلما غفوت يوقظنى كابوس ، وبعد ليلة أرق ليلاء تسلل الضوء الرمادى الشاحب عبر خصاص الشرفة أخيرًا ، فارتديت ثيابى الجديدة فى حماس مبالغ فيه كأنى أهرب من شىء ما ، وكنت أول طالبة تدخل إلى الكلية ، وتجلس فى الكافيتيريا فى انتظار الآخرين ..

طلبت كوبًا من القهوة المرة وجعلت أحتسيها بغير شهية وأنا جالسة أجول ببصرى فيما حولى ، أكاد لا أصدق أنى أنا من أنشأتْ كل هذا فى حياتها الأولى بوجه (عصمت) ..

يبدو وجودى اليوم بوجه (جيسيكا) الفتى مجرد فصل آخر فى رواية عبثية ، أو مشهد فانتازى فى سياق فيلم مهرجانات !

رويدًا رويدًا ، بدأت السيارات تزداد حول (الجراند شيروكى) البصلى الواقفة وحيدة فى المرآب الذى تشرف عليه الكافتيريا ، وبدأ الطلاب يتجمعون تحت المظلات ويعلو صياحهم بالمزاح والمناقشات ، مع بعض المرضى الذين أتوا من المستشفى التعليمى القريب ليبتاعوا بعض الحاجيات لأنفسهم أو لذويهم ..

وأنا وحدى ، أنتظر إشارة بدء تدفعنى إلى قلب المعترك الطلابى ، لأجد نفسى واحدة منهم ..

كيف ؟!

سأنتظر !

ازداد الصخب من حولى وشعرت بالنعاس ، تذكرت أن الكوابيس لم تتركنى أنام الليل جيدًا فنهضت أطلب كوب قهوة آخر من البائع الواقف عند منضدة الكافيتريا ، وانتبهت عندها إلى أنى أقف بجوار شاب أعرفه ..

(كان هو الفتى الذى رأيته يعزف الجيتار على الطوار ، وعن قرب تمكنت من فهم مفتاح شخصيته قبل حتى أن يفتح فمه ..)

(.. عيناه الملونتان وشعره الطويل وذقنه الحليق ..)

كلا ، لم تكن ذقنه حليقًا هذه المرة وإنما نامٍ فى إهمال ، وإن كان شعره لا يزال طويلاً فى غير ترتيب وإن كانت عيناه لم تفقدا ألوانهما بعد بطبيعة الحال ..

ابتسمتُ للمفارقة ، منذ أسابيع كنت أنا الدكتورة التى تختبره وتضع له درجة الرسوب بضمير مستريح لكى يتعلم درسًا ما ، وتحلله نفسيًا بامتعاض (عجائز الفرح) على أنه الفتى المدلل الذى يتسامح مع نفسه إلى حد الفساد ، والآن أقف إلى جواره وأنظر إليه دون أن ينتبه هو لكونى أفعل ، ودون أن يتصور أننى أنا التى كانت تتلذذ بتعذيبه منذ فترة ليست طويلة ..

ماذا كان اسمه ؟! (طارق) أم (ياسر) ؟!

تبدو فكرة اقتحامه غير جذابة ، بالذات وهو شارد عنى وعن كل ما حوله ..

عندما استدار حاملا ما طلبه بين يديه قرأت فى عينيه الحمراوين إرهاق سهر طويل ، ولاحظت كدمة زرقاء فى طريقها للاختفاء قرب عينه اليسرى ، وتجمدتُ لوهلة طويلة نسبيًا بحاجبين منعقدين كنت قد رسمتهما بعناية أمام المرآة هذا الصباح وأنا أنظر إليه ، لم أفق إلا على نداء البائع والكوب الورقى فى يده يضوع منه البخار الساخن ..

ـ القهوة يا آنسة ..

يا للغرابة ، ما الذى يحدث لى ولحكمى القديم على الأشياء ؟!

أكاد أجزم بخطأ شعورى الأول تجاه هذا الفتى .. أكاد أكون واثقة أنه ليس ذلك الوسيم الذى يتيه فخرًا بوسامته ، وليس ذلك المدلل الذى يدفعه التدليل الزائد إلى حب نفسه والغفران لها وعدم الميل لإهانتها .. لقد كنت مخطئة ، أعنى أن (عصمت) كانت مخطئة وكانت تبسط الأمور إلى حد التسطيح ، أقولها بكل ثقة رغم أنه لا دليل على ما أقول .. فأنا لا أعرف عن الفتى شيئًا ولا أذكر اسمه حتى!

يبدو أن حياتى الجديدة تغير من نظرتى إلى الأمور دون أسانيد واضحة ، وهو ما لا أشعر براحة كبيرة تجاهه خاصة وأنى لا أجد سببًا وجيهًا لخفقان قلبى المضطرب الآن وأنا أراقبه من بعيد ، يجلس وحيدًا ، وبجواره حقيبة الجيتار الجلدية السوداء الكبيرة مستندة بحافتها على المقعد وبقاعدتها على حشائش الأرض الخضراء ، أما هو فعاقد ساعديه وناظر فى المجهول ..

ما الذى يحدث لى ؟!

لم أدر كم تجمد الزمن لكنى أدرى أننى رأيت كل شىء ..

رأيت الفتى الآخر الذى نادى باسمه بجوار سيارتى (الجراند شيروكى) :

ـ طاااااارييييق !

رأيته ينظر نحو جهة النداء وعرفت طبعًا أن اسمه ليس (ياسر) ، ورأيته ينهض سائرًا عندما أشار له الفتى الآخر أن يقترب ، ورأيت الفتى الثالث يقترب من المقعد الشاغر من الجهة الأخرى وعلى وجهه سمات التآمر العابث ..

هذا الفتى الثالث أعرفه أيضًا ، لقد كان أول من اختبرتهم فى ذلك اليوم الذى لم يكن بعيدًا ..

(.. الطالب البدين الذى رأيته يتظارف عند دخولى للكلية ، وكان يرتدى المعطف الأبيض وعلى رأسه نفس القبعة التى رأيته بها فى الخارج ..)

ماذا كان اسمه ؟! (مؤمن) أم (أمين) ؟!

لم يكن يرتدى المعطف الأبيض الآن لكنها نفس القبعة ونفس الملامح ونفس الميول العدوانية التى قرأتها فى عينيه يومها من الوهلة الأولى ..

إن نظرتى نحو هذا الفتى لم تكن خاطئة على أية حال ؛ لو كان فى هذا تخفيف على أو تهوين من شأن ما حدث ، فما حدث هو أننى رأيته يقترب من المقعد الذى كان (طارق) يجلس عليه ، وبحركة خفية مد يده ليُسقط حقيبة الجيتار الجلدية السوداء على الحشائش الخضراء ، ثم مع سابق الإصرار وكامل الترصد اخترقت قدمه الثقيلة علبة الجيتار الخشبية التى أصدرت صوت تحطم ممتزج بتمزق الأوتار المؤلم ؛ كأنها قلوب حية تنخلع من مستقرها فى جنبات صدور منفجرة ..

التفتَ الجميع نحو مكان الجريمة ، (طارق) والفتى الذى كان يحادثه ـ قرأتُ فى عينيه هو الآخر لمحة تآمرية متواطئة مع نظرة الفتى البدين ـ وجميع من كانوا فى الكافيتيريا والمرآب تقريبًا ، واخترق طبلة أذنىَّ هتاف (طارق) الملتاع :

ـ (مؤمن) ؟! ما الذى تفعله ؟!

ورأيت (مؤمن) ـ لم يكن اسمه (أمين) كما هو واضح ـ يتظاهر بالبراءة مع مسحة لا تخفى من السخرية السيكوباتية :

ـ أوبس .. يبدو أننى قد خطوت فوقه بالخطأ .. تقبل عذرى يا شقيق !

هرع (طارق) ركضًا نحو الجيتار ، واحتضن بقاياه كما تحتضن الأم طفلها بعد أن صدمته سيارة على قارعة الطريق ، وغامت سماء عينيه الملونتين بدموع على وشك الانهمار ..

أضاءت أمام عينى فى سطوع البرق صورته وهو يبكى بعد أن خرج من لجنة الامتحان ، وتذكرت امتعاضى من بكائه وقتها فامتعضت من نفسى بأثر رجعى ، وتأججت النيران فى دمى ، إذ أنهض وأتجه نحو (مؤمن) ، الذى كان يهز كتفيه ويتحدث كأنه برىء بالفعل :

ـ لا تترك حاجياتك ملقاة هكذا فى طريق السير يا صديقى ، واهتم بأمرها أكثر ..

كان (طارق) يهتز انفعالا وهو يغمغم بصوت سمعته بالكاد :

ـ لو تعرف كم كلفنى هذا الجيتار .. لو تعرف ..

اكتسبت نبرته تعاطف الواقفين الناظرين فى صمت ، فعاد (مؤمن) يقول :

ـ صدقنى لم أنتبه إلى أنه فى طريقى عندما ...

ـ كاذب !

دوى هتافى بها فى صرامة ، والتفتت نحوى كل العيون التى تموج بانفعالات مختلفة على الفور .. ما بين دهشة .. تساؤل .. غضب .. حماس .. استنكار .. رغبة فى الفهم .. ولا مبالاة ..

سألنى (مؤمن) وهو يشير إلى صدره بإبهامه المكتنز ، فى لهجة مفعمة بالاستهجان :

ـ هل تتحدثين إلىّ يا آنسة ؟!

كان (طارق) ينظر نحوى بعينيه المنكسرتين كأنهما تطلبان نجدة ما ، فيما أقول مشيرة إلى مكان جلوسى أتناول القهوة :

ـ أجل ، أتحدث إليك .. فما من كاذب هنا إلا أنت يا صاح .. لقد رأيت كل شىء من هناك ..

عقد الفتى البدين ذراعيه الضخمتين أمام صدره قائلاً :

ـ ومن تكونين حتى يهتم أحد بالاستماع إليك أصلاً ؟!

الوغد .. لو كنت فى موقع قوتى الأول الآن لفصلته من الكلية عشر مرات على الأقل ، ولو حدثنى رئيس الجمهورية بعدها شخصيًا من أجل إرجاعه لما فعلت !

لكنى الآن ، مجرد ...

ـ طالبة جديدة معكم فى الكلية ..

قلتها من بين أسنانى وأنا أشيح بوجهى ويدى كأنى أنفى عن نفسى تهمة ما ، فأتانى الرد الوحيد المتوقع :

ـ طظ !

ثم ضحك ساخرًا وهو يبتعد واضعًا ذراعه فوق كتف الفتى الآخر ، أما (طارق) فقد كان يهتز كالريح محتضنًا الجيتار المحطم داخل حقيبته ، وهو لا يزال على حافة الانفجار فى البكاء الشاكل ، بينما بدأ المتحلقون فى الانفضاض إلى شئونهم بعد أن أتم (مؤمن) رغبته المريضة فى (صنع مشهد) كما يقول الغربيون .. إنها عين

الرغبة التـى اجتـاحتنى دون غرض أو مرض ، وأنـا أمد يدى إلى نراع الفتى وأساعده على النهوض ، مما حبس دموعه خلف قنـاع من الجمود ، أو قل الذهول ..

ـ انهض ، ولا تستلم ..

قلتها فى صرامة متجهمة ، وأنا أمد كفى وأسوى ثيابه وأنفض عنها الغبار بنفسى ، وانتبهت إلى أنـى أمـارس دورًا أموميًا لـم يدعنـى إليه أحد ، فتوقفت عما أفعل وتنحنحت مدارية حرجـى ، ثم مـددت يدى مصافحة إياه :

ـ عذرًا ، لم أعرفك بنفسى بعد .. اسمى (جيسيكا) !

صافحنى بنفس الذهول ، أو قل الجمود ، وقد كان كل هـذا كافيًا لصنع المشهد الذى أريده لكنى تماديت أكثر ، فأمسكت بحقيبـة الجيتـار الساقطة أرضًا ، وقبـض كفـى الآخر علـى معصـم (طـارق) ، ثـم جذبته خلفى سائرة بخطوات واسعة نحو :

ـ مكتب العميد .. يجب أن نسرع إلى هناك ونشكو إليه فورًا !!

* * *

هكذا كان المشهد ملهمًا بحق ، فريدًا من نوعه إلى حد الجنون : فتاة بوجه آسيوى مليح تمسك بحقيبة جيتار وتجرجر خلفها أحد الطلبة المستسلمين لها من معصمه حتى تبلـغ مكتب العميد بـالفعل ، فتقـابل هناك السكرتيرة التى لم تكن تصلح لتثبيت زر فى قميص الدكتورة (عصمت) ، وتهتف بها دون وعى :

ـ أين (عزت) ؟!

ينعقد حاجبا السكرتيرة المرسومين بقلم حواجـب رخيـص ، وتحـاول أن تتأكد ممـا سمعته وهى تنظر إلى وإلى حقيبة الجيتار وإلى (طارق) :

ـ من ؟!

أنتبه إلى أنى لم أعد الدكتورة (عصمت) التـى يبجلها الجميع خوفًا من تجـاوزات شيخوختها غالبًا واحترامًا لتاريخها الطويل أحيانًا ، فأعدل من قولى بعض الشىء :

ـ أعنى العميد .. أريد مقابلة العميد الآن ..

تخاطبنى اللعينة فى جفاء روتينى :

ـ ما هو السبب ؟!

ـ شكوى ..

ـ ومن تكونين ؟!

ـ طالبة .. أعنى باعتبار ما سيكون .. سأكون طالبة رسميًا بعد أيام قليلة !!

ـ للأسف الدكتور (عزت) مشغول وهو فى العموم لايقابل الطلبة ..

لو أنى كنت أقل اندفاعًـا وفكرت فـى الأمـر قليـلا لربمـا غيرت رأيى قبل أن أقف موقفًا كهذا ..

- لو أن لديك شكوى ما يمكنك كتابتها وسأضعها فى ملف البريد ليطلع عليها فيما بعد ..

لكن ما حدث قد حدث ولن يمكن إعادة الزمن إلى الوراء ، وهذه المتأنقة لا تعرف مع من تتحدث لمجرد أن مخى قد انتقل إلى جسد آخر !!

- كلا ، لن أكتب شيئًا ..

قلتها فى تصميم ، وتذكرت قول الإنجليز : إنك إن أطلقت النار على الملكة فمن الأفضل لك أن تصيبها فى مقتل !

- وسأقابل العميد الآن ، شئتِ أم أبيتِ ..

وبمنتهى السرعة استدرت نحو الباب المغلق ، وأنا مازلت قابضة بكفى على معصم (طارق) الذى بدا أشبه بطفل هادئ لا يملك من أمر نفسه شيئًا ، واقتحمت المكتب بحركة رعناء مكررةً ذلك المشهد الخالد فى تراثنا السينمائى والتليفزيونى حتى اليوم .

السكرتيرة تحاول اللحاق بى منادية بكل الألقاب الممكنة (يا آنسة ، يا فتاة ، أنتِ يا ...) ، وبالطبع لا حياة لمن تنادى ، وفى النهاية أقف متجمدة أمام الباب المفتوح و(عزت) ـ بصلعته اللامعة وبسمته الأكثر لمعانًا وأناقته الفاضحة التى تكاد تعشى بصر من ينظر إليها مباشرة ـ ينظر نحوى من وراء مكتبه مستغربًا ومتسائلا :

- ما الذى يحدث ؟!

صوت السكرتيرة من ورائى :

- حاولت منعها ولم أستطع ، هل أنادى الأمن يا دكتور (عزت) ؟!

كل هذا مكرر لحد الإعياء ، غير أن (عزت) حاول أن يخرج عن النص المحفوظ بإضافة بعض الإثارة عندما هتف فى حزم مستاء :

- طبعًا ، وليخرجهما رجال الأمن من هنا على الفور ..

ثم عاد لميراث المحفوظات العتيد :

- إنها ليست وكالة بلا بواب !

هل يجب أن يكون هناك بواب لكل وكالة ؟! سؤال أضعه بكل المحبة أمام كتّاب الحوار الدرامى الذين أشبعونا بهذه الجملة .. لا أذكر أنى سمعتها على أرض الواقع طوال حياتى المديدة الأخرى ، لكن هذه ـ كما يقول البعض ـ قصة أخرى !

هتفت محاولة أن أتدارك الأمر :

- لا حاجة لذلك ، أردت فقط أن أضع هذا أمامك يا دكتور ..

وانهلتُ بحقيبة الجيتار على المكتب بكل ما فى الجسد الضئيل الذى أحتله من قوة ، فتحطم ذراعه الخشبى داخل الحقيبة ، وبهتَ (عزت) لما يجرى ، فيما أتابع طرق الحديد ساخنًا ، دون أن تعاوننى نبراتى الرقيقة على أن يكون لصياحى الوقع المرعب الذى أرومه :

ـ لو كنتَ عاجزًا عن السيطرة على ما يجرى بين الطلبة من مشكلات ، بحيث يتحول الحرم الجامعى نفسه إلى شريعة الغاب التى يلتهم فيها القوى الضعيف ، فلا أقل من أن تحترم مقعدك الذى تجلس عليه ، وترحل !

ثم إنى اقتربت أكثر من حافة مكتبه ، ولا بد أنه رأى انعكاسًا ما لوجه (عصمت) على ملامحى الأسيوية الغاضبة ، وقلت مشيرة نحوه بسبابتى :

ـ عندما كانت الدكتورة (عصمت) تجلس فوق هذا المقعد كان بابها مفتوحًا للجميع ، وكانت جزءًا من عالم الطلبة لأنهم هم عماد الكلية الحقيقى .. حقًا ، إنك تسير على قواعدها بممحاة كما أخبرتكَ آخر مرة !!

واندفعتُ أغادر حجرة المكتب ، تاركة إياه يضرب أخماسًا فى أسداس ، ينظر إلى السكرتيرة مشيرًا إلى الباب وهو يسأل فى جزع :

ـ من هذه ؟!

فتهز الأخيرة كتفيها فى جهل ، وبينهما (طارق) فى وضع لا يحسد عليه أبدًا !

* * *

عدتُ إلى سيارتى ، أغلقتُ الباب على نفسى بعنف وحركتها إلى الخلف ضاغطة دواسة الوقود بكل قوة ثم الكوابح بقوة أكبر ، فالتفتت نحوى الأنظار من جديد ..

يبدو أنى مضطرة إلى الاعتذار للسيد (سارتر) ، إن الآخرين جحيم لا يطاق بالفعل ..

فى سرعة من النوع الذى ينتهى بكارثة كنت أقود السيارة نحو بوابة الخروج ، وحلت الكارثة بسرعة لم أتوقعها ، أو للدقة كادت أن تحل ، عندما كنت قاب قوسين أو أدنى من أن أصدم تلك المرأة السمينة المحجبة ذات العباءة السوداء ..

ضغطت الكوابح بشدة صرت لها العجلات المحتكة بالأسفلت ، وهبطت فى سرعة أعاون السيدة التى سقطت أرضًا دون أن تصاب لحسن الحظ على النهوض ، فقط لأكتشفُ أنها :

ـ (أم محمود) ؟!

نظرت نحوى المرأة فى غباء وهى تتحامل على نفسها واقفة ، ثم إنها سألتنى لاهثة :

ـ هل تعرفيننى يا ابنتى ؟!

كدت أضحك ..

ابنتها ؟! وأنا التى كنت منذ أسابيع قليلة أكبُرها سنًا بكثير ، مع خالص الشكر لمؤسسة (حياة جديدة) المحدودة !

ـ أجل أعرفك جيدًا ، الدكتورة (عصمت) هى من أخبرتنى عنك ..

لم تدقق المرأة ذات العقلية البسيطة فى كلامى ، فحتى لو كان هناك من أخبرنى عنها ، كيف يمكن أن يجعلنى ذلك أتعرف عليها ؟!

لقد أشرق وجهها ببسمة طيبة وهى تسألنى فى إخلاص :

ـ الدكتورة (عصمت) .. كيف حالها ؟! وأين هى الآن ؟!

ـ سافرت ولن تعود ، لكنها أوصتنى بك خيرًا .. إننى أقيم فى منزلها الآن ، وأريدك أن تعودى لكى تمارسى مهام عملك فى المنزل .. ما رأيك ؟!

ـ من عينى ..

كانت صدفة غريبة هونت على نكد اليوم قليلا :

ـ لكن ، ما الذى تفعلينه هنا يا (أم محمود) ؟!

ـ ابن أختى مريض يُعالج هنا منذ شهور فى القسم المجانى ، و ...

تذكرت ، كانت قد طلبت منى أيام كنت (عصمت) أن أتدخل لعلاجه على نفقة الدولة ، لكنى وبمنتهى الصفاقة والقسوة صددتها ، وهو ما لا أسامح عليه نفسى الآن كـ (جيسيكا) :

ـ آه ، نعم .. الدكتورة (عصمت) طلبت منى أن أهتم بالأمر .. ما اسمه ؟!

ـ من ؟!

ـ ابن أختك المريض !

أعطتنى اسمه فهاتفت (خالد) على الفور وأمليته إياه ، واندهش هو لمطلبى إذ أقول :

ـ أريدك أن تهتم به وأن تنهى إجراءات علاجه على نفقة الدولة .. لو تطلبت حالته علاجًا مكلفًا فسأتحمل تكاليفه كاملة فى أكبر مستشفى خاص بالبلاد أو خارجها .. OK ؟!

ـ هل هو مهم بالنسبة إليك لهذه الدرجة ؟!

ـ أكثر مما يمكنك أن تتخيل ..

كانت المرأة واقفة بجوارى لا تكاد تصدق ما تراه وتسمعه ، أما (خالد) فقد طمأننى :

ـ سأهتم به ، لا تقلقى ، ولكن ...

ثم إنه سألنى :

ـ هل أنت السبب فى الارتباك والفوضى التى تعم مكتب العميد الآن ؟! أم أن هناك من تحمل ملامح آسيوية غيرك فى الكلية ؟!

أجبته فى غموض واضح :

ـ أراهن أنك ستعرف كيف تلملم الأمور .. إن (عزت) وغد ، والأوغاد ينسون الإهانة بسرعة لأنهم معتادون على تلقيها .. أليس كذلك ؟!

أجابنى ضاحكًا :

ـ بلى ، ولكن لا تعتمدى على قدراتى الخارقة فى كل شىء ..

انتهت المكالمة وأنا أنظر إلى (أم محمود) باسمة ، وانتبهت لحظتها إلى نفير السيارة التى تسد عليها سيارتى الطريق ، فقلت لها ملوحة بسبابتى :

ـ سأنتظرك من اليوم لو كان هذا ممكنًا ..

ثم اتخذت مقعدى وأغلقت الباب بينما سؤالها يلاحقنى :

ـ لا تؤاخذينى ، ما هو اسمك يا بنتى ؟!

كيف سأخبرها بنطقه الصعب ؟!

ـ (جى جى) .. يمكنك أن تناديني بـ (جى جى) ..

وانطلقت بى السيارة ..

* * *

فى صباح اليوم التالى هبطت منها أمام كافيتيريا الكلية حاملة حقيبة أخرى تأخذ هيئة الجيتار ، حقيبة أكبر حجمًا ذات لون بنى ، وتحوى جيتارًا كما لا يحتاج المرء إلى عبقرية فذة حتى يدرك هذا ، وقد اتجهت حاملة إياها إلى (طارق) الجالس على أحد المقاعد العريضة وسط بعض الفتيان معطيًا ظهره لى ، ولم أشعر بنفسى إلا وأنا أقتحم جلستهم وأوقف حديثهم وأناول الحقيبة إلى (طارق) :

ـ تفضل ..

وجم الجميع ، ونظروا إلى فى استغراب لكنى لم أهتم .. لقد بلغت من العمر فى حياتى الأولى على الأقل ما هو كفيل بإعفائى من أى حرج ممكن ..

ـ ما هذا ؟!

ـ خمن !

تناول الحقيبة من يدى الممدودة ، وفتحها ليفاجأ وينبهر :

ـ رباه ، هذا أغلى أنواع الجيتارات على الإطلاق ..

قلت باسمة ، ومتجاهلة مغزى نظرات الفتيان نحوى :

ـ لا تغلو عليك ، لكن عليك أن تهتم بهذا أكثر .. وأن تعرف كيف تدافع عن نفسك إذا تعرض لك أحد بالمضايقة ..

رفع إلى عينين ممتنتين :

ـ أشكرك ، يا (جيسيكا) ..

قلت بعينين أكثر امتنانًا وضيقًا :

ـ من الجميل أنك لا تزال تذكر اسمى .. والآن ، ألن تعزف عليه شيئًا ؟!

وجلست إلى جواره مباشرة ، فتبادل الشباب نظرات فيها آلاف المعانى التى لم يكن أى منها يروق لى ، لكنى كبرتُ على الاهتمام بهذه الصغائر حتى لو كان مظهرى الخارجى لا يشى بذلك !

عزف (طارق) لحنًا جميلاً ، وطرت مع همسات الأوتار المتجانسة الممتزجة بصوته الناعم الحنون ، وبينما هو مندمج فى العزف والغناء ، كانت هى تتمسح بفرائها الناعم عند قدمى أسفل المقعد ..

ذهلت لمرآها ، وحملتها بين يدى هاتفة باسمها الذى لم أنسه بعد :

ـ (تمارا) ؟!

(.. أثناء غياب الجميع ، وأنا وحدى فى الغرفة ، دخلت متسللة نحوى فى خفة ، فلم أشعر بها إلا وهى تقفز فوق جسدى المسجى فوق سرير الآلام ..)

هى القطيطة الصغيرة التى زارتنى أثناء إقامتى الجبرية ـ أعنى إقامة (عصمت) ـ للعلاج البائس من كسر رأس عظمة الفخذ ، أستطيع تمييز ملامحها وعينيها وشواربها دون أدنى نسبة خطأ .. خبيرة مثلى عاشت عمرها مع زوج يرعى القطط فى حماس جنونى يمكنها أن تتعرف إلى قطة رأتها مسبقًا بمجرد النظر ، لقد كانت فوق صدرى تمامًا تلعق وجهى / وجهها حتى أخذ ..

(ـ آسف يا (تانت) ..) ..

حتى نهضتُ فجأة حاملة القطيطة معى ، وهرولت فى سرعة نحو المستشفى القريب تتابعنى العيون المكبوتة ، وكان (طارق) قد توقف عن الغناء لتنهال تعليقات الفتيان السخيفة تجاهه وتجاهى من وراء ظهرى المبتعد ..

داخل المستشفى مررتُ بالغرفة التى كنت مقيمة فيها قبل أسابيع ، هنا على ذلك السرير كنت أموت فى الثانية الواحدة عدة مئات من المرات ، وهأنذا قد عدت داخل جسد آخر ، لأتذكر تلك الأيام بكل النفور وكل الرغبة فى الابتعاد عن هنا فورًا ..

سأبتعد لكن يتعين على أن أعيد (تمارا) إلى صاحبها أولا ..

(طفل صغير فى رداء منزلى ، عيناه ذكيتان وحادتان ، نحيل ورأسه حليق تمامًا ..)

على سريرى القديم الآن يرقد مريض آخر لا تهمنى رؤيته ، وقد تجاوزت الغرفة فى سرعة ووقفت أمام باب الغرفة المجاورة المغلق .. كدتُ أطرقه غير أن الممرضة التى خرجت أولا نظرت إلى متسائلة :

ـ نعم ؟!

لم ألق بالا إلى جلافتها ، وسألتها فى تلعثم مرتبك :

ـ هـ .. هناك شخص .. أعنى طفل صغير .. كان اسمه (كريم) على ما أتذكر .. وكان يُعالج فى هذه الغرفة من ...

قاطعتنى بنفاد صبر :

ـ البقاء لله ..

صحت فى رعب :

ـ ماذا ؟! مات ؟!

هزت رأسها فى إيجاب ، ومن قلب الدوار الذى اعترانى سألتها :

ـ منذ متى ؟!

أجابتنى وهى تنصرف :

ـ منذ بضعة أيام ..

واختفت ، بل اختفى كل شىء من أمامى بغتة ..

(فيما بعد عرفت أن (كريم) هو ابن رجل على باب الله ، يتم علاجه هنا فى القسم المجانى من وحش (الليموكيميا) أو سرطان الدم ..)

لم يبق فى هذا الكون كله سواى ، و(تمارا) بين يدى ، ودموعى تنهمر دون أن أستطيع وقفها فوق وجنتى ..

انطلقت صرخات الطفل المريض الذى لم أره إلا مرة واحدة فى حياتى كلها ترمينى بحجارة من سجيل ، طاردتنى حتى المنزل ، أقضت على مضجعى ولم تخفت قليلا إلا عندما قررت أن أدفع تبرعًا كبيرًا لجمعية خيرية متخصصة فى علاج سرطان الأطفال ، وكان (خالد) كالمعتاد هو من تولى تنفيذ المهمة عنى ..

أما (تمارا) فقد أصبحت طفلتى الجديدة فى المنزل الذى لم يعد مقبرة ، تقيم (أم محمود) معى الآن ، ومازال مخطط انتقالى لمكان آخر ساريًا فور عثور (خالد) على هذا المكان المنشود .. إنه لن يستطيع القيام بكل شىء فى وقت واحد ، طلباتى كثيرة وهو ليس مدير أعمالى الخاص ، هو فى النهاية طبيب محترم

وجراح ماهر جدوله مزدحم على الدوام ، ويتحرك بوازع أخلاقى ليخدم أستاذته دون مقابل ..

سألتنى (أم محمود) :

ـ عذرًا يا آنسة (جى جى) ، ألن تحتاجى سائقًا خاصًا يريحك من عناء القيادة ؟!

أعرف ماذا تعنى :

ـ ألم يعثر (جلال) على عمل آخر بعد ؟!

ـ كلا ، ووراءه كوم لحم !

يا لجمل الحوار المكررة ، شكرًا يا كتاب الحوار الدرامى الأجلاء ..

ـ سأصرف له راتبه الشهرى القديم دون الحاجة لأى من خدماته !

ولم تصدق المرأة الطيبة نفسها ، كما لم تكن (عصمت) لتصدق أيضًا ..

الثروة التى ألقى بها (نعمان) ضخمة ، وأنا لم أتعب فى جنيها ، كما لم يتعب (نعمان) رحمه الله هو الآخر ..

كل هدفى الآن أن أحاول إسعاد من أعرفهم بها على الأقل ..

أتصور هذا هدفًا جليلا ولا أتصور أن أحدًا يخالفنى وجهة النظر ، وعلى المتضرر اللجوء برأسه إلى أقرب حائط !

* * *

انتظمتُ أخيرًا طالبة بصفة رسمية فى كلية الطب ، وتوطدت علاقتى بـ (طارق) من النظرات المتباعدة إلى الجلسات المطولة وتبادل الحوارات الجانبية وحدنا ، تكرر ظهورنا معًا بكثرة داخل الكلية ، وقد حدثنى الفتى عن حياته كثيرًا ، ليثبت لى كم كانت نظرة (عصمت) متجنية تجاهه !

سألته يومًا عن الجرح الذى يشق شفته السفلى طوليًا :

ـ ألا تنتبه حتى لا تصاب بهذه الحوادث العرضية المستمرة ؟!

ابتسم فى سخرية مريرة :

ـ ومن أخبرك أنها حوادث عرضية ؟!

خفق قلبى فى عنف :

ـ ماذا تعنى ؟!

ـ أعنى أنها بفعل فاعل ..

ـ من ؟!

تنهد فى حرارة ، ثم انطلق :

ـ لا أعرف لِمَ أصارحك أنت بالذات بكل شىء ؟! لكنى أشعر أنى اقتربت منك كثيرًا فى الأيام الماضية حتى أخال أننى أعرفك منذ زمن بعيد ..

ـ إنك لم تصارحنى بشىء بعد !

ـ إنه أبى ..

شهقت :

ـ يضربك ؟!

ـ بقبضته أحيانا وبالحزام أحيانا ويضرب رأسى فى الحوائط والأبواب عندما يستبد به الغضب ، ولعمرى فهو يغضب لأتفه الأسباب الممكنة !

اتسعت عيناى :

ـ وأنت فى هذا السن ؟!

ـ هو رجل عسكرى صارم وأنا ابنه الوحيد من زوجته الأولى التى توفيت وأنا بعد فى المدرسة الابتدائية ، من يومها ولا يوجد من يدافع عنى .. زوجة أبى مهتمة أكثر بالدفاع عن أبنائها !

أكاد أفقد وعيى :

ـ والكدمة الزرقاء التى رأيتها حول عينك يوم أن تحطم الجيتار .. هى أيضًا بسببه ؟!

هز رأسه إيجابًا ، ثم قال دون أن يبدو عليه سمت الرقة المعتاد ، بل كان يضع فوق ملامحه قناع غل دفين وجد أخيرًا متنفسًا للخروج :

ـ كل كوارث حياتى كانت بسببه .. بدءًا من دخولى القسم العلمى فى الثانوية إلى التفوق الذى ألقى بى فى هذه الكلية رغمًا عنى ..

أتذكر بشاعة ما لقيته من لكمات يوم واتتنى الجرأة لأصارحه برغبتى فى دخول معهد (الكونسيرفاتوار) .. هو الذى ملأ لى استمارة مكتب التنسيق بنفسه يومها ، وأصر على دخولى مجال الطب تحقيقًا لحلمه القديم الذى اختطفته حياة الجيش ، وبدأ يلاحق رغباتى الموسيقية متوعدًا إياها بالإبادة التامة .. لا أستطيع أن أدندن بلحن عفوى فى المنزل وإلا كان يومى أغبر .. أما الجيتار فأخفيه فى غرفة المهملات فوق سطح المنزل ، ويكاد قلبى يتوقف إذا صعد لقضاء أمر مخافة انكشاف الأمر ، وتحوله إلى مذبحة ..

نظرت إليه فى شفقة وأنا أكاد أبكى ، لم أكن أدرى أنى كنت مخطئة فى أمره إلى هذا الحد ، وأخذت الخواطر فى رأسى تطرح الحل المجنون تلو المستحيل !

ـ معنى هذا أنك لا تهوى دراسة الطب ؟!

سألته وأنا أعرف الإجابة :

ـ الحق أنى أمقتها و لا أطيق رائحة الأدوية والمطهرات وينفطر قلبى لمشهد إنسان يتألم .. منذ أسابيع كنت أخوض امتحانًا مع الدكتورة (عصمت) .. أنتِ لا تعرفينها بالطبع لأنها سافرت إلى (أمريكا) فى رحلة علاج سوف تطول .. المهم أنها طلبت منى توقيع الكشف على امرأة حامل لا تشكو من شىء .. فقط جاءت للمتابعة كما تقضى قواعد الرعاية الصحية الأولية .. لستُ بارعًا فى أى فحص إكلينيكى وأتحاشى تمامًا أن أحتك فعليًا

بأى مريض أو مريضة طوال فترة الدراسة .. تقدمتُ من السيدة التى كشفتْ عن بطنها وارتعشتْ يداى وأنا أؤدى الفحص .. ولأنها المرة الأولى التى كنت أؤديه فيها رغم أنى أحفظ خطواته عن ظهر قلب ، إلا أننى شعرتُ بأن السيدة تألمتْ قليلا عندما لامس كفى بطنها فى محاولة بائسة لتحديد ارتفاع مستوى الرحم ومعرفة عدد أسابيع الحمل .. وجهها المتألم جعلنى أفقد البقية الباقية من تركيزى ولا أجيب عن أى سؤال تال ، وظللت أيامًا طويلة أبكى بحرقة عندما أتذكر هذا الوجه الذى كنت سببًا فى جعله يتألم ..

رباه ..

وأنا التى فهمته خطأ لحظتها ، وتصورت أنه كان يبكى بسبب الرسوب المهين !

لكم كنت قاسية عليه ، ولكم يخفق قلبى الشاب الآن ..

بحبه !

الحقيقة العارية أننى أحبه بالفعل ، وأريد إنقاذه مما هو فيه بأى وسيلة ، بأى ثمن ..

ـ لنتزوج يا (طارق) ..

صعقه ما سمعه ، ونظر نحوى برد فعل عفوى مستنكر :

ـ ماذا ؟!

ـ لدى ثروة ضخمة ، وأملك من الحرية ما يعيننى على التصرف كيفما أحب ، كما أننى أسكن وحدى فى مكان شاسع .. زواجنا سيمكنك من الخروج عن سيطرة والدك المتسلط ، ومن الهروب من قبضته الباطشة .. سيعطيك أيضًا حرية الاختيار فى أن تبدأ حياتك مرة أخرى كما تحب ، قبل أن تضيع منك بقيتها الباقية ، يمكننى أن أنتج لك أغانيك فى شريط كاسيت مثلا ، فما رأيك ؟!

أراهن أنه عرض لا يمكن رفضه ، لكنه لم ينبس لحظتها ببنت شفة ، الأمر الذى جعلنى أنهض قائلة فى حسم عملى :

ـ لا ترد الآن .. خذ وقتك فى التفكير ويوم تقرر أن تفعلها ، ستجدنى بانتظارك ..

حاول أن ينطق بشىء ، لكن لسانه لم يطاوعه .. المفاجأة كانت صادمة إلى أقصى حد كما هو واضح ..

ـ أعلم ، يحتاج الأمر لكثير من الشجاعة .. كما أخبرتك ، خذ وقتك ، ولنلحق الآن بموعد المحاضرة التى ستبدأ فى غضون دقائق ..

* * *

فى أيامى الأولى كطالبة كنت نجمة المحاضرات والمعامل دون منازع ، ودون أدنى مجهود فى الاستذكار والتحصيل .. إننى الدكتورة (عصمت) صاحبة النصف قرن من الخبرة الطبية والأكاديمية قبل أن أكون (جيسيكا) ذات التسعة عشر ربيعًا والوجه الملائكى البرىء .. أكثر من مرة صححت معلومة ما لمحاضر أو معيد ، أكثر

من مرة أديت تجارب معملية صعبة من المرة الأولى بدقة قصوى ، أكثر من مرة حاول الأساتذة المغتاظون حصارى بأسئلة تعجيزية فأفحمتهم بإجابات لامعة .. وكان لا بد أن يلفت هذا نظر الطلبة الأوائل والمتفوقين الذين شعروا بأنى جئت خصيصًا لسحب البساط من تحت أقدامهم ، ولسرقة الكاميرا المتوجهة إلى وجوههم التى أدمنت نشوة البراعة ، واسألونى أنا عن هذه النشوة !

على صعيد آخر لم أكن أرى (طارق) إلا شاردًا ، يفكر فى عرضى دون شك ، ودون قدرة على فتح الموضوع مرة أخرى ، إلا أنه كان قد لجأ إلى نوع آخر من الرومانسية : ورود وخطابات وشرائط كاسيت مسجل عليها أغانيه أجدها فى حقيبتى أو جيب معطفى الأبيض أو أسفل ماسحة زجاج (الجراند شيروكى) الأمامية .. جعلنى هذا أعيش سنوات مراهقتى المسروقة ، وأكد إصرارى على التمسك بالفتى ، فقط عندما يجد فى نفسه الجرأة كى يرحل معى إلى آخر بلاد العالم دون التفكير فى النتائج ..

على صعيد ثالث وجد (مؤمن) فى شخصيتى التى هاجمته بعنف يوم تحطيم الجيتار فريسة مثالية لمضايقاته المريضة ، تلاحقنى تعليقاته السخيفة بصوت مرتفع وتعبيرات سوقية كلما كنت أتحدث مع (طارق) وحدنا ، كلما التقت عينانا رسم لى وجهًا منفرًا ، لم يكتف بهذا القدر من استثارة كراهيتى فوجدته يومًا بعد نهاية محاضرة قد أفسد طلاء سيارتى من الجانبين باستخدام آلة حادة مثل مطواة أو سن مفتاح ، وما أكد لى أنه هو ، ذلك الحرف المرتسم بوضوح فوق حقيبة السيارة باستخدام نفس الآلة ..

حرف M ..

عند هذا الحد كان قد دفعنى إلى الحافة ، فسألت (طارق) :

ـ هل يأتى (مؤمن) إلى الكلية فى سيارة ؟!

ـ أجل ، ها هى ذى ..

وأشار لى إلى سيارة (هوندا سيفيك) من طراز الثمانينيات ، فما كان منى إلا أن توجهت إليها وأفرغت إطاراتها الأربع من الهواء ..

والبادى أظلم !

استمتعت برؤيته هو وأقرانه يفكون الإطارات ويحملونها لملء الهواء دون أن يتصور أحدهم أننى أنا الفاعلة ، ملامحى كانت أكثر براءة من أن تشى بشىء وأنا أتجه إلى قاعة المحاضرات لأتألق بقوة كعادتى ..

بعد نهاية المحاضرة اقتربت منى فتاة أعرفها ..

(فتاة هذه المرة ، يبدو أنهم أخبروها أننى أحب سماع التاريخ المرضى بالعربية فبدأت تلاوته على فى تنسيق أنيق ..)

ماذا كان اسمها ؟! (أمينة) أم (أمانى) ؟!

ـ مرحبًا .. أنا (أمانى) الأولى على الدفعة فى العام الماضى ..

اسمها ليس (أمينة) كما هو واضح !

ـ أهلاً ..

خاطبتُها فى تحفظ ، ولم يكن معرفة سبب اقترابها منى بهذه الصعوبة ..

ـ أردت فقط أن أعرف المصادر التى تعتمدين عليها فى المذاكرة ..

باعتبارها أولى الدفعة فإن تفوقى الواضح لا يهدد مركزها المتقدم فقط ، وإنما أيضًا يشعرها بإهانة شخصية لا تغتفر ..

قلت وأنا أهز كتفى فى بساطة :

ـ لا مصدرًا بعينه ، من كل بستان زهرة كما يقولون ..

ـ كنت أريد أن أسألك فى نقطة غامضة لو كنتِ تملكين الوقت ..

قلت معتذرة فى زيف سافر :

ـ لا أملك الوقت الآن للأسف ، ربما فيما بعد .. لكن أخبرينى ، هل أنت الأولى على الدفعة حقًا ؟!

قالت فى لهجة دفاعية جادة كأنها تلقت صفعة غادرة :

ـ راجعى شئون الطلاب وتأكدى بنفسك ..

ـ ليس الأمر أنى لا أصدقك ، لكن .. ألم تضع لك الدكتورة (عصمت) درجة النجاح بالكاد فى الاختبار الأخير ؟! سيهدد هذا ترتيبك هذا العام حتمًا !

افتر ثغر (أمانى) عن بسمة ماكرة ، وقالت ناظرة إلى (طارق) الذى كان لا يزال يجلس بين الفتيان فى المدرج :

ـ لقد أخبرك بهذا إذن .. ألم يخبرك أيضًا أنها قد وضعت له درجة الرسوب ؟!

تحولت أنا إلى اللهجة الدفاعية :

ـ أخبرنى .. لكنه لم يدع الحصول على مركز متقدم فى ترتيب الأوائل !

تجاهلتْ الفتاة ما فى عبارتى من تعريض بها ، ثم قالت :

ـ لقد أخبرك فى الحالتين بنصف الحقيقة فقط .. فقد تمت إعادة الاختبارات فى اليوم التالى ونجحنا جميعًا .. وأنا حصلت على الدرجة النهائية التى أستحقها عن جدارة ..

انعقد حاجبى ، وانتقل إلى الشعور بتلقى صفعة غادرة :

ـ وماذا عن اختبار الدكتورة (عصمت) ؟!

ـ كانوا يحاولون إرضاءها فجعلوها تقوم باختبارنا ، لكنهم ألقوا بالأوراق التى سودتها فى سلة المهملات فور أن غادرت الكلية .. بالله عليك ، كيف يمكن لامرأة فى مثل سنها وحالتها الصحية أن تكون جهة تقييم موضوعى ؟! هذا ما قاله لنا العميد عندما صعدنا لنشكو له ما فعلته بنا فى غرفة الامتحان ، بل واعتذر لنا جميعًا أيضًا ..

الأوغاد !

إنه إخلال صريح بقواعد المهنة ، وخرق لكل الأعراف السائدة فى مجتمع الجامعة أو أى مجتمع آخر يُفترض أن يحترم الصغير فيه الكبير ..

تركتُ الجامعة وقد فسد يومى وتعكر مزاجى ، وكما لا تأتى المصائب فرادى ، فإنه لا يأتى ما يفسد عليك يومك إلا وتتلوه سلسلة أخرى من المعكرات المزاجية ، التى قد تفضى لتغيير مسار حياتك الجديدة تمامًا ، وقد تلقى بك فى عمق هوة لم يكن ليخطر لك على بال ما ستلاقيه فيها من حدثان ..

قالت (أم محمود) فور أن أغلقت باب المنزل خلفى :

ـ هناك طرد وصلك قبل قليل يا ست (جى جى) !

باستغراب رددت خلفها :

ـ طرد وصلنى قبل قليل ؟!

أشارت إلى مظروف كبير يرقد فى سلام خادع فوق منضدة الصالة القريبة ، وقالت :

ـ هاهو ذا ..

اتجهت إليه ، جلست أمامه أتأمله فى هدوء لا يخلو من ريبة ، قبل أن أحمله وأمزق طرفه ، وأطالع ما يحويه ..

الغريب أنه لم يكن هناك اسم لراسل فوقه ، أما محتواه فكان أغرب : شريط فيديو VHS بلا ملصق يصف محتوياته !!

التصرف المنطقى التالى هو أن أضع الشريط فى فم جهاز الفيديو أسفل التليفزيون، وأضغط زر المثلث PLAY ، وأتابع بعينين ذاهلتين ما يجرى على الشاشة أمامى ، محاولة إقناع نفسى بأن الأمر ربما لا يكون بهذا السوء الذى يبدو عليه ظاهريًا ..

* * *

(٣)

كادر ثابت مأخوذ عبر كاميرا فيديو منزلى قديمة ذات طراز تناظرى Analogue كما يبدو من رداءة الصورة ، يصور الكادر جانبًا من غرفة ضيقة يغلب عليها طابع الفقر وتعمّها الفوضى ، وعلى طرف سرير خشبى وطىء أجلس أنا بملابس منزلية تستر وتكشف معًا ، وأتحدث للكاميرا بلغة لا أفقه منها حرفًا واحدًا ذا معنى !

إنها أنا الجديدة ، أعنى القديمة ، (جيسيكا) قبل أن تصبح (جيسيكا) ، أو صاحبة الجسم الذى أحتله الآن بهوية (عصمت) الأولى قبل أن تختفى و ...

ما كل هذا الارتباك ؟!

كانت الفتاة الآسيوية الضئيلة والبريئة والرقيقة تتحدث إلى الكاميرا فى هدوء ، تقول كلامًا كثيرًا لا بد أنه بلغتها الأصلية ، هذا قبل أن تموت وتتجمد توطئة لدخولى إلى عالمها الغامض الذى ما زلت أجهل عنه كل شىء ..

انهمر شلال من الأسئلة : من الفتاة ؟! ماذا تقول ؟! من أين هى وبأى لغة تتحدث ؟! أين صوّرته ومتى ولماذا ؟! أكثر من ذلك .. كيف وصل هذا الشريط إلىّ ؟! من أرسله وكيف استدل على عنوانى الجديد وهويتى الجديدة هنا فى (مصر) ؟! ما الذى

يريده منى أو منها ؟! هل يحاول إبلاغى شيئًا ما لا أعرفه ولا أفهمه ؟! وكيف يمكننى أن أتصرف حيال هذا التدخل السافر غير المتوقع فى حياتى الجديدة ؟!

تناسلت الأسئلة بسرعة خارقة وأفضت كلها إلى طريق واحد مسدود : لا إجابة ..

طوال عشر دقائق كاملة تحدثتْ الفتاة ـ التى هى أنا حاليًا ـ مخاطبة الكاميرا .. فى عينيها الضيقتين يلوح حزن غريب ، وآثار بكاء ، ثم أظلمت الشاشة لثانية أو أقل ، قبل أن تنطلق الإلكترونات لتضرب سطح الشاشة بعد انتهاء التسجيل ..

وكنت أنا تمثالا متجمدًا أمام التلفاز ، أحاول فهم ما لا يمكن فهمه !

قضيتُ بقية اليوم كالملتاثة أعيد الفرجة على التسجيل مرارًا وتكرارًا ، ربما أكون قد شاهدته لمائة مرة أو أكثر قليلا عندما أيقنت أن الوحيد الذى يمكن أن يفيدنى فى هذا الالتباس هو (خالد) ، دون سواه ..

كيف فاتتنى هذه الفكرة البسيطة من البداية ولم تضرب تفكيرى إلا قرب منتصف الليل ؟!

طوال ساعات الليل الأسود وأنا أعيد الفرجة على الشريط كلما انتهى ، و أحاول فى الوقت نفسه الوصول إلى (خالد) دون جدوى ، هاتف المنزل والعيادة يرنان طويلا قبل أن ينتهى

الرنين من تلقاء نفسه ، هاتفه المحمول هو الآخر رنّ طويلاً بلا مجيب ، قبل أن ترد على الرسالة المسجلة بأن الهاتف الذى طلبته ربما يكون مغلقًا ، قرب أذان الفجر بقليل ..

هل يهرب منى (خالد) ؟!

تساءلت وأنا أتابع نفسى ـ باعتبار ما كان ـ على الشاشة ، واكتشفت أن حقيقة أخرى بسيطة قد فاتتنى : إننى لم أر (خالد) منذ أكثر من أسبوع الآن ، ولم أهاتفه طوال هذا الأسبوع إلا مرة أو مرتين على الأكثر ، مكالمة أو اثنتين من النوع العادى ، تلك التى تنسى فحواها بمجرد أن تنتهى ..

كان يزورنى كثيرًا فى البداية ، ويحرص على الاطمئنان المستمر علىّ سواء وأنا (عصمت) أو (جيسيكا) .. يبدو أن حياتى الجديدة قد أخذتنى فى دوامات بعيدة حتى أنى لم أشعر بالتنائى طوال هذه الفترة ، ويبدو أنه كان لديه ما يكفيه من المشاغل هو الآخر ، أو ربما يكون لا وعى قد صور لى أن فى ابتعادى عنه مزيدًا من الحرية والانطلاق ..

يجب أن أصل إليه بأى وسيلة ، هو الوحيد الذى يمكن أن يفيدنى ، هو الوحيد ، ويقينى يزداد كلما أوغل الليل أكثر نحو مطلع الفجر ، وكلما فشلت فى العثور عليه ..

فكرت فى الذهاب إلى منزله ، لكنى فى اللحظة التالية اكتشفت حقيقة أكثر عبثية : لا أعرف له عنوانًا سواء الذى يخص المنزل أو العيادة ، لا أملك إلا أرقام لهواتف ترن وترن بلا مجيب !!

يا لى من ألمعية !!

طوال هذه الزمن الفائت لم يحلّ أبدًا ظرف مناسب لأسأله عن عنوان أجده فيه وقتما أحتاجه ، والحق أنى لم أكن أتصور أبدًا أن تأتى لحظة أحتاج إليه فيها بهذا القدر ، وبهذا الإلحاح ..

انقضت الليلة النابغية وأنا بين التليفزيون أعيد الفرجة على الآسيوية المتحدثة للمرة الألف أو المليون ، أحاول فك طلاسم حديثها من انفعالاتها ، وأفكر فى الاستعانة بمترجم متخصص بعد أن أعرف لهذه اللغة كنهًا ، وبين الهاتف الذى لا يجيب .. حتى قررت فى النهاية أن أنسحب إلى الخارج ..

سألتنى (أم محمود) والنعاس يلتهم عينيها وصوتها :

ـ هل أعد لك فنجان القهوة المعتاد ؟!

أخبرتها وأنا أقبض على مزلاج الباب دون أن أزجج حاجبى قبل الخروج كما أفعل دومًا :

ـ كلا .. اهتمى فقط بإفطار (تمارا) عندما تصحو من النوم ..

سأذهب إلى الكلية وآخذ الشريط معى ، سأبحث هناك عن (خالد) حتى أجده وأسأله عن مغزى هذا العبث الذى أفسد على مسار حياتى إلى مدى لم يتضح بعد .. سيكون لدى (خالد) جوابًا شافيًا بكل تأكيد .. أو أن هذا ما أرجوه ..

عندما أوقفت الـ (جراند شيروكى) فى مرآب الكلية أمام الكافيتيريا كان هناك مشهد آخر صنعه (مؤمن) بالاشتراك مع (طارق) ، صوت صياحهما واضح وإن كانا لا يظهران أمام ناظرىِ بنفس الوضوح ، فتجمع الطلاب الجماهيرى حولهما محاولاً فض النزاع المحتدم يخفيهما تماما ..

يستحق الأمر أن أهبط إلى هناك أولا لكى أفهم ما يحدث ، ويستحق الأمر أيضًا أن أخترق الجموع نحوهما لأرى المشهد غير المتوقع بالمرة ؛ (طارق) يمسك بتلابيب (مؤمن) فى عنف ويصيح فيه بمنتهى القوة :

ـ أنت كذاب أشر .. وفوق هذا وغد زنيم ..

يقول (مؤمن) فى استسلام عجيب ، متخفيًا وراء بسمة لزجة :

ـ ربما أكون وغدًا ، لكنى لست كذابًا .. إن دليلى على ما أقول فى يدى ..

يده التى يتحدث عنها تقبض على أسطوانة ليزر ينعكس شعاعها فوق وجهى ، ثم يستدير نحوى وتتسع بسمته وتصبح أكثر لزاجة عندما يقول :

ـ ها هى السنيورة قد حضرت بنفسها ، يمكننا أن نسألها ونقطع الشك باليقين ..

يصيح فيه (طارق) :

ـ اصمت ، عليك اللعنة !

تساءلتُ عاقدة حاجبى غير المزججيْن :

ـ ما الذى يحدث هنا ؟! وما هذا الذى تريدون سؤالى عنه ؟!

كاد (مؤمن) أن يتحدث ، غير أن (طارق) ترك تلابيبه فجأة واختطف الأسطوانة من يده هاتفًا :

ـ لا شىء ، يمكنك الابتعاد الآن وسأفهمك ما يجرى فيما بعد ..

قلت فى تحد ، فحركات الصبية الذين يستعرضون رجولتهم المبكرة تحنقنى الآن أكثر من أى وقت مضى :

ـ أريد أن أفهم كل شىء الآن .. ما هذه الأسطوانة التى فى يدك ؟!

ضحك (مؤمن) وقال يلكزه فى كتفه :

ـ أخبرها أيها الليث .. هيا !

صاح بى (طارق) فى عصبية :

ـ كفى فضائح .. ابتعدى الآن وسنتحدث فيما بعد ..

لم أشعر بنفسى إلا وأنا أمسك بمعصمه وأنا أبادله الهتاف العصبى بآخر أكثر منه عصبية :

ـ بل الآن ..

أفسح لنا الجمع المحيط مجالا للعبور ، وصوت (مؤمن) يدوى خلف ظهرى إذ يشير إلينا قائلاً :

ـ انظروا .. كل ما تفعله يقول أنها هى .. هى دون غيرها ..

وأسفل شجرة جانبية كنت أواجه (طارق) أخيرًا ، وأخطف الأسطوانة من يده كما خطفها هو من (مؤمن) ، سائلة إياه فى حنق :

ـ والآن .. هلا أخبرتنى : ما قصة هذه الأسطوانة ؟!

هتف بى فى غضب وهو يشير إلى الأعناق المشرئبة نحونا من بعيد :

ـ هل كان يجب أن تمسكى بيدى هكذا أمام الجميع ؟! ألا تعرفين أننا نعتبر هذا خطأ وسلوكًا مشينًا ، هنا فى (مصر) ؟!

صحت فيه :

ـ لا تغير الموضوع ..

ثم رفعتها أمام عينيه :

ـ الأسطوانة ، ولنتحدث عن أخلاق القرية فيما بعد !

تنهد (طارق) وحاول السيطرة على انفعالاته ، ثم إنه مسح وجهه بكفيه قبل أن يقول :

ـ (مؤمن) .. إنه ينشر أكاذيب سامة حولك .. ويحاول تشويه سمعتك دون وازع من ضمير أو أخلاق ..

ـ ماذا فعل ؟!

سألته فأشار إلى الأسطوانة مجيبًا :

ـ إنه يدعى أنه قد وجد موقعًا إباحيًا على شبكة الإنترنت خاص بالفتيات الآسيويات يحوى مجموعة صور لك فى أوضاع مشينة !!

لم يخطر لى هذا على بال أبدًا !

ـ حقًا ؟!

نطقت بها فى ذهول ، فحاول (طارق) أن يهون من الأمر قائلاً :

ـ إنه أفاق مدع .. إما أنها واحدة تشبهك ، فالآسيويات تتشابهن كثيرًا بالنسبة للعيون غير الخبيرة ، وإما أنه قد ركّب وجهك على أجساد أخرى .. إنها حيلة معروفة للنيل من الفتيات الشريفات على الشبكة ..

سألته وأنا أخفض يدى الممسكة بالأسطوانة :

ـ هل رأيت الصور بنفسك ؟!

هز (طارق) كتفيه قائلاً دون أن ينجح فى إخفاء رائحة المرارة المنبعثة منه :

ـ كلا ، ليس بعد ..

يجب أن أرى بنفسى إذن .. قلتها لنفسى وتركته متجهة إلى سيارتى على الفور ، تلاحقنى العيون ما بين ساخرة ومشفقة ، والتعليقات تنغرس فى لحمى رماحًا ذات نصال مسمومة :

ـ لدينا خادمة فلبينية تشبهها !

ـ إمكانيات هذه أكبر بكثير .. ألم تشاهد الصور ؟!

ـ ملامح ملائكية وميول شيطانية .. سبحان الله !

وغيرها كثير ..

شعور مميت ، أن تمشى عاريًا أمام الناس دون ورقة توت ..

شعور دفعنى للفرار بأسرع ما أستطيع داخل سيارتى ، بعد أن لمحت المكتوب فوق غبارها بإصبع أحدهم ، ربما يكون (مؤمن) وربما يكون سواه من الأوغاد :

ASIANBEAUTY.COM

(الجمال الآسيوى دوت كوم) ، إنه عنوان الموقع المزعوم على الشبكة دون ريب ، وقد مسحته بيدى قبل أن أتحرك فى سرعة ، ضاغطة دواسة الوقود فى رعونة ..

داخل السيارة كنت أجاهد لكبت دموعى ومشاعرى .. أحاول مهاتفة (خالد) من على هاتفى المحمول دون جدوى .. أرتعد من فرط الإهانة ومن شعورى بالازدراء الرهيب لنفسى ، أن سمحتُ لامرأة مثلى كانت قد بلغتْ من العمر أرذله بخوض تجربة بشعة كهذه ..

عند أول متجر إلكترونيات توقفت وابتعت جهاز كمبيوتر ذا مواصفات متقدمة بسعر باهظ ، بالإضافة إلى كتاب عن شبكة

الإنترنت حتى أفهم مبادئها ، فرغم كل شيء لست إلا عجوزًا فى زى شابة ، وعقلى لم يكن على دراية بهذه الأمور البسيطة كأبناء اليوم ..

فى المنزل كان أول ما فعلته أن وضعت الأسطوانة داخل الجهاز ، وأخذت أتفقد محتوياتها فى لهفة وجلة ، لأكتشف أن (مؤمن) اللعين كان على حق رغم كل شيء !

لم تكن الأسطوانات ذات السعة الكبيرة ٧٠٠ ميجا بايت تحوى إلا ملفًا صغيرًا بلغة الـ HTML الشهيرة المستخدمة لنشر المواقع على شبكة الإنترنت ، لا يتجاوز حجمه الـ ٢٣٠ كيلو بايت .. لست خبيرة تقنية لكنى عرفت هذه المعلومات الأولية من الكتاب الذى اشتريته .. المهم أن الملف كان يحوى صفحة مأخوذة عن أحد المواقع الشبكية ، تحمل اسمًا كبيرًا فى البداية بحروف إنجليزية KASIA TEEN ، مع اثنتى عشرة صورة متراصة فى ثلاثة صفوف عرضية بحيث يحوى كل صف منها أربع صور ، وللأسف بنظرة محايدة فهذه الصور تخصنى أنا ، أعنى أنها تخص صاحبة الجسد الذى أحتله الآن بمخى ، وهى صور تبعث على الحرج والاشمئزاز والنفور ، وتجعل منى ـ فى حياتى السابقة ـ محض جارية فى سوق نخاسة العصر الحديث ، أعنى هذا النوع من المواقع المبتذلة على الإنترنت ..

كلا ، ليست صور فتاة أخرى تشبهنى ، أنا أجيد التمييز بين الملامح الآسيوية المختلفة ولا يمكن أن أسقط فى فخ التشابه ، وكلا أيضًا ، شبهة التلاعب بالصور رقميًا عن طريق لصق رأسى

على جسد آخر غير واردة بالمرة ، صحيح أنى لست خبيرة جرافيكية لكن هذه صور أصلية من زوايا لا يمكن التلاعب بها ، ثم إنى أدرى بجسدى الجديد من غيرى ، وثالثًا : من أين يمكن أن يحصل أحدهم على صورى حتى يتلاعب بها ؟! وكيف يمكن أن ينتج التلاعب صورة قريبة للغاية كهذه التى فى أقصى اليسار لأعلى ؟!

هى أنا بكل تأكيد ، وKASIA هذا هو الاسم الذى كنت أحمله فى حياتى السابقة ، أم أقول الاسم الذى كانت هى تحمله فى حياتها السابقة ؟!

لم تخل الصفحة من إثباتات على صحتها واستبعاد تزييفها ، كالإعلانات الصغيرة التى تروج لمنتجات إباحية ومواقع إنترنت أخرى قبيحة من ذات النوع المتناثرة أعلى وأسفل الصفحة ، وكالتنويه الذى يصاحب المواقع الدعائية من هذا النوع بأنك لو اشتركت فى الموقع عن طريق الدفع فسترى أكثر مما يمكنك أن تراه هنا ، مع وصلة ظاهرة واضحة للموقع الأصلى المأخوذ منه عينة الصور :

ASIANBEAUTY.COM

لكنى رغم هذا أوصلت خط التليفون ببطاقة الفاكس وولجت إلى عالم الإنترنت ، وكان أول ما كتبته فى خانة العناوين هو عنوان المذكور ، والمختص بالجمال الآسيوى ..

بالرغم من شعورى بوضاعة ما أفعله عندما ارتسمت على المتصفح صفحة الموقع الرئيسية ، إلا أن رغبتى فى سبر أغوار الحقيقة جعلتنى أجازف بوضع رقم أحد بطاقات ائتمانى داخل قسيمة الاشتراك بالموقع من أجل الحصول على مزية الإبحار داخله كيفما أحب ، وبالبحث وجدت ركنًا كاملا لـ KASIA هذه ، مع طن من الصور المزرية ، فى ملابس وأماكن وهيئات مختلفة ، تضرج لها وجهى بحمرة الخجل ، وأخذت أبحث عن أى معلومات تخص الفتاة ، فلم أجد إلا وصفًا خليعًا متهتكًا لها ، مع إشارة عرضية لكونها قد تجاوزت الثامنة عشر بقليل !

هذا كل شىء ، مع خالص الشكر لرفيقى الكتاب العزيز ..

أرسلت ببريد إلكترونى للقائم على الموقع أسأله إمدادى بمعلومات عن الفتاة نظير أى مبلغ يطلبه ، وبعد ساعتين فحسب جاءنى رد منه على صندوق بريدى الإلكترونى الذى أنشأته لهذا الغرض خصيصًا (خالص الشكر لرفيقى العزيز مرة أخرى!) ، يخبرنى فيه بأنه كان يتمنى أن يفعل ، لكنه لا يملك أى معلومات ، فالقائمون على هذا النوع من المواقع لا يتصلون مباشرة بالعارضات المحترفات ، وإنما يتعاملون مع وسطاء ـ بمعنى آخر سماسرة وبمعنى أكثر صراحة قوادين ـ ومن يستطيع مساعدتى فى الاتصال بهم مسافر فى الخارج إلى أجل غير مسمى .. كان يتهرب فى وضوح ولم يكن أمامى حل آخر سوى المحاولة مجددًا مع (خالد) ، بعد أن بلغت الأمور هذا الحد من الفظاعة ..

بعد عدة محاولات مع هواتفه المختلفة جاءنى رده أخيرًا على الهاتف المحمول ، فلم أشعر بنفسى إلا وأنا أصرخ به فى حدة عاتية :

ـ أين أنت ؟! صار لى يومان وأنا أحاول أن أكلمك دون أن ترد ..

ـ ماذا حدث ؟!

شعرتُ أنه يحادثنى فى برود ، أو لعله مرهق بعد يوم حافل ، المهم أن هذا لم يشغل بالى كثيرًا فى خضم ما أعانيه منذ البارحة :

ـ أنت لا تعرف ما الذى أعانيه منذ البارحة ، وصلنى شريط فيديو مسجل عليه حديث للفتاة التى كانت تملك هذا الجسد قبلى بلغة لا أفهم منها حرفًا واحدًا ، واليوم .. اليوم عثر أحد الطلاب على موقع إباحى فيه كم وافر من صورى البورنوجرافية تحت اسم (كاسيا) ..

ـ وهذا يضايقك ، أليس كذلك ؟!

مزيد من البرود ، أو لعله الإرهاق ، ربما الملل ، لكنى من جديد لم أشغل بالى كثيرًا :

ـ ما الذى تتوقعه ؟! ما الذى يجرى هنا يا (خالد) ؟!

ـ ليتنى أعرف !

ـ من هذه الفتاة التى أعطيتمونى جسدها ؟! أريد أن أعرف على الأقل حتى أستريح ..

- العقد الذى يتضمن توقيعك فيه بند صريح يكفل للمؤسسة إخفاء هذه النقطة بالذات عنك ..

إنه برود ، ليس إرهاقًا وليس مللا وليس تهربًا ، هو برود سافر لم أعتد عليه منه قبل الآن ، وقد أثار هذا أعصابى بشدة لم أتوقعها :

- أنت وعقدك ومؤسستك اللعينة .. ماذا أفعل الآن وكل طلبة الكلية قد رأوا صور الفضيحة ؟! أين أختبئ لو ظلت طرود كشريط الفيديو هذا تطاردنى ؟!

- لا شأن لى بهذا كله .. يمكنك أن تفعلى ما تشائين دون الرجوع إلى من اليوم .. سافرى وجِدى لك مكانًا آخر ومجتمعًا مختلفًا تندمجين فيه لو كانت هذه النصيحة تفيدك ..

- (خالد) ، ماذا دهاك ؟! لماذا تكلمنى بهذه الطريقة ؟!

- من اليوم أنت ستتولين مسئولية نفسك .. إن ورائى مشاغل لا تنتهى ودورى معك قد انتهى منذ عدتِ بجسدك الجديد إلى هنا .. لا تحاولى الاتصال بى فى الأيام القادمة لأنى مسافر ، سأحضر مؤتمرًا فى (كوبنهاجن) يستغرق أيامًا ، أتعشم فيها أن تكونى قد وصلت إلى سلامك النفسى المنشود ..

لهجته الجديدة باغتتنى ، كأنى كنت فى انتظار هذا منه هو الآخر ، وأنا التى ظننت أن عدم رده على مهاتفاتى هو أسوأ ما يمكن أن ألاقيه من جهته ..

- إلى اللقاء ، يا عزيزتى (جيسيكا) !

وأغلق الخط دون ينتظر ردًا منى ..

هذا مفهوم ، أنا الآن (جيسيكا) التافهة التى تعيش حياتها الجديدة ، لا الدكتورة (عصمت) الجديرة بالتبجيل والاحترام ..

هذا ما فعلته بنفسى ، وما أودت إليه حماقتى ..

تجمدت نظراتى فوق الهاتف المحمول الذى أنزلته من فوق أذنى غير مصدقة ما سمعته ، وبوغت بالتفصيلة الدقيقة عند التحام عظام رسغى الأيمن بكفى ، تلك التفصيلة التى أطلت برأسها فى الوقت المناسب ، أو أن هذا ما توهمته ..

(.. بينما أجرب أسورة جديدة من الذهب الملون أمام مرآة المتجر الكبيرة ، وعندها .. عندها لاحظت ذلك الجرح فى رسغى الأيمن / رسغها الأيمن .. الجرح الملتئم الذى يمكن الاستعانة به فى كتب الطب الشرعى كمثال نموذجى لما يمكن أن ينتج عن محاولة انتحار بواسطة موسى حاد ..)

محاولة انتحار .. هذا يبدو منطقيًا ..

أسرعت أشغل شريط الفيديو للمرة العاشرة بعد المليون الثامن ، وأرهفت سمعى جيدًا لكل الرطانة التى لا أفقه منها شيئًا ، غير أنى استطعت أن أخلص إلى نتيجة ما ، فقد نطقت الفتاة باسمها فى مواجهة الكاميرا عند بداية حديثها ، كأنها تقول عبارة على غرار :

- اسمى هو كاسيا (شىء مـا) ، وأنـا فـى كـامل قـواى العقليـة أعلن أنى على وشك الإقدام على ..

محاولة انتحار .. هذا يبدو منطقيًا بشدة ..

هذه رسالة إذن تشرح فيها الفتاة على مدى عشر دقائق دوافعها لارتكاب الجريمة فى حق نفسها ، ثم تظلم الشاشة وتنحر الفتاة رسغها الأيمن ، لتموت فى هدوء أليم ..

قد تكون ترجمة ما يُقال على الشاشة مفيدًا فى معرفة هويتها السابقة ، غير أنى أشك فى كونه مفيدًا فى معرفة هوية المرسل وغرضه .. أفكر الآن فى طريقة أسهل من العثور على مترجم للحصول على معلومة مؤكدة ..

إنها شبكة الإنترنت مرة أخرى ، مع الشكر الجزيل لكتابى العزيز ..

فى محرك البحث GOOGLE كتبت على لوحة المفاتيح كلمة KASIA فوجدت عشرات الآلاف من الوصلات التى تقودنى لصفحات تحتوى على الاسم ، ضيقت النطاق أكثر وكتبت كلمتى KASIA+SUICIDE : الاسم بجوار كلمة (انتحار) ، هنا خرجت بعشرات الصفحات فقط ، وبضغط الوصلات بدأت الصفحات تنفتح أمامى ، ولم يمض كثير من الوقت حتى كنت أحرز نصرًا آخر فى طريق بلوغى قلب الحقيقة ..

على صفحة رديئة التصميم كان العنوان الكبير واضحًا ، بجوار صورة غائمة لأحد شوارع مدينة آسيوية يتجمهر فيها الناس حول عربة إسعاف أمام مبنى متواضع :

انتحار عارضة إباحية مراهقة فى منزل قديم بوسط المدينة

الخبر المكتوب بإنجليزية ركيكة يروى باختصار قصة ما حدث :

(انتحرت فتاة ماليزية شهرتها (كاسيا المراهقة) تعمل عارضة إباحية على موقع إنترنت تجارى ، تاركة خلفها رسالة مسجلة على شريط فيديو تشرح فيها دوافعها للانتحار ، قائلة بأنها قد تعبت من حياة الخطيئة وتخاف انتقام أهلها وتسألهم أن يسامحوها .. جاء بلاغ انتحارها فى المنزل ٢٢ بشارع السلطان إسماعيل للشرطة الماليزية من مجهول ، وانتقلت الشرطة للموقع المذكور على الفور ، لكنهم لم يعثروا على الجثة ، وإن كانوا قد عثروا على الشريط الذى يصورها تترك رسالتها الأخيرة قبل الانتحار ..)

انتهى ..

هذا كل شىء إذن ، والخبر المنشور فى الجريدة الماليزية الصادرة بالإنجليزية يوفر على مشقة العثور على مترجم ، ويضع أمامى خطة شبه متكاملة للتحرك ..

يجب أن أعرف كل شىء ، ربما تبدو مسألة صعبة لكنها ليست بمستحيلة ..

انتزعنى من براثن خواطرى صوت الطرق على زجاج الشرفة من الخارج ، وجعلنى أشهق لرؤيتى من يشير إلى بيده من هناك ، تحت ستار الظلام ..

- (طارق) ؟!

ندت عنى فى دهشة ، وأنا أتوجه وأفتح باب الشرفة بينما هو يتحدث إلى بمنتهى الحرج ، دون أن تواتيه الجرأة على الخطو إلى داخل الغرفة :

ـ آسف (جيسيكا) .. أعلم أنه ليس الأسلوب المناسب لمقابلتك .. لكن ، أنا أدور حول المنزل منذ الظهيرة ولم أجد طريقة أخرى تمكننى من رؤيتك .. لقد لاحظت أن هناك سيدة كبيرة تعيش معك وخفت أن تمنعنى من رؤيتك إذا ما ...

قاطعتُ ثرثرته المرتبكة :

ـ كيف عرفت مكانى أصلاً يا (طارق) ؟!

ازدرد ريقه فى صعوبة ، وقال ماسحًا بكفه عرقًا وهميًا فوق جبهته :

ـ تبعتك من الكلية عندما غادرتِها ، وشاهدتك عندما ذهبتِ لشراء الكمبيوتر و ...

لم يجد ما يكمل به عبارته ، ولم أجد فى نفسى الجرأة لدعوته إلى الدخول ولا الرغبة فى طرده ، فى النهاية لست سوى امرأة شرقية خجولة لكنى أحبه وأحتاج إليه فى الوقت نفسه ..

أى حيرة .. وأى تناقض ..

ـ .. (جيسيكا) ، لقد أتيت كى أخبرك أننى موافق على عرضك !

سألته فى غباء لم أصطنعه :

ـ أى عرض ؟!

ـ عرض الزواج .. قلتِ لى أن أخبرك عندما أجد فى نفسى شجاعة لقبوله .. هيا نترك هذا العالم ونذهب بعيدًا يا (جيسيكا) ، كفانا ما لقينا منه حتى اليوم ..

ليتك أتيت مبكرًا بيومين اثنين فقط يا (طارق) ، إذن لتغيرت أشياء كثيرة ، لكن الآن ...

ـ لا أستطيع يا (طارق) ..

ـ ماذا ؟!

ـ أمامى مهمة لا تحتمل التأجيل ، رحلة اكتشاف للذات بكل ما يحمله التعبير من معنى ..

قطب (طارق) قائلاً :

ـ (جيسيكا) .. لست أفهمك ..

ـ ولا أنا أفهم نفسى يا عزيزى ، لذا لا تجهد نفسك ..

ثم إنى نظرت فى عينيه مباشرة لأتابع :

ـ .. لكن ، إليك عرضى البديل .. أن تنتظرنى حتى أعود ..

قال فى صدق :

ـ سأنتظرك ..

ـ هنا فى منزلى .. يمكنك الانتقال والعيش هنا مع (أم محمود) الخادمة بعيدًا عن قسوة أبيك وتحكمه فى خيوط دميته الصغيرة

التى هى أنت ، سأترك لك نقودًا تكفيك ، وكل ما عليك أن تعتنى بقطتى (تمارا) .. فما رأيك ؟!

تردد لوهلة ، فخرجت إليه فى الشرفة ، ووضعت يدى على كتفه مشجعة :

– لا يحتاج الأمر إلى تفكير .. لقد قلت أنك ستنتظرنى وأنا أصدقك ..

– وإلى أين ستسافرين ؟!

أعطيته ظهرى ، ونظرت إلى صورة الشارع الآسيوى التى لا زالت تعلو شاشة الحاسب الآلى فى غرفتى ، قائلة فى تحد وتصميم :

– إلى مكان بعيد ، بعيد .. فى قلب (آسيا) .. فهناك .. هناك فقط ، سأتمكن من البحث الحقيقة الغائبة ، وربما العثور عليها أيضًا ..

★ ★ ★

(٤)

عشرة ساعات متواصلة من ركوب الهواء على مقعد نصف مريح ، ثم حطت الطائرة أخيرًا فى مطار (كوالا لامبور) الدولى ..

لا تستغرق إجراءات المطار وقتًا طويلاً بالنظر إلى أن دخول البلاد لا يحتاج إلى تأشيرة ، ومن المطار إلى وسط المدينة استغرقت المسافة نصف ساعة تقريبًا ..

كنت قد استطعت الحصول على سيارة مريحة أقلتنى إلى شارع السلطان إسماعيل مباشرةً ، وهناك اخترت أقرب الفنادق إلى مكان الحادث ، وقد ساعدنى سائق سيارة الأجرة ، الشاب طيب القلب الذى يتحدث إنجليزية مضعضعة ، على إيجاد الفندق ذى النجوم الأربع ؛ نظير حفنة متواضعة من الدولارات ..

لم أكن أحمل إلا حقيبة صغيرة حشوتُ فيها بعض الحاجيات الضرورية ، لذا فبمجرد أن اقترب منى الحمال أمام بوابة الفندق ولاحظ ضآلة ما أحمله ؛ حتى تراجع إلى وقفته الأولى مكتفيًا بالمراقبة من بعيد ، ولم أعره أنا التفاتًا إذ عرفت طريقى إلى الداخل فى سرعة ، وحصلت على غرفة مريحة نسبيًا نمت فيها عددًا قليلا من الساعات ، قبل أن أفيق مع أول ضوء للنهار ، ومع فنجان القهوة الصباحية المرة كنت أفكر بعمق وجدية فيما سأفعله ، إن كان هناك بالفعل ما يمكن أن أفعله ..

فى خلفية أفكارى المشوشة راحت الأسئلة تطل برءوسها لتشوش أفكارى أكثر :

ما الذى جاء بى إلى هنا ؟! أى جنون قادنى للسفر وأى حماقة أقدِمُ على ارتكابها بالنبش فى ماض لم أشارك فيه ، ولا يقبل عقل أن أنتمى إليه لأننى عشته بهوية مختلفة ، ومخ آخر ؟!

غير أنى سادرة فى الطريق الذى لم أرسمه ، ذلك الذى لا أستطيع عنه رجوعًا ، ولم أكُ أملك إجابات شافية فاكتفيتُ بتجاهل المنطق البسيط ، وبالتفكير فى الخطوة التالية ..

ليس أمامى إلا أن أهبط وأسأل عن المنزل رقم ٢٢ ..

ما الذى يمكن أن تقودنى عليه معاينة المكان الذى ارتكبت فيه (كاسيا) جريمة انتحارها ؟!

لا أدرى ، إنهم لم يعثروا على جثتها هناك ويمكننى على الأقل أن أبدأ من هذا الخيط الغامض ..

لكنى كنت متفائلة أكثر من اللازم على ما يبدو ، فبالرغم من أن المنزل رقم ٢٢ كان يقع خلف الفندق مباشرة ، إلا أنه كان مغلقًا ومهجورًا .. النوافذ المشرعة متآكلة الطلاء يعلوها غبار ومن خلفها ظلمات القبور الساكنة .. طرقتُ الباب المتداعى مرارًا وتكرارًا ولم يرد أحد .. لا يوجد غفير ولا من أستطيع سؤاله عن أى شىء .. الشارع كله يبدو مهجورًا والسكان ندرة ، ولا أحد يسير أو يجلس أمام الأبواب ، أو يطل من خلف النوافذ

والشرفات .. وقبل أن أستسلم لخاطر التسلل الذى عنَّ لى فى إلحاح ، جذبتُ نفسى جذبًا إلى الفندق ، وأنا أفكر فى ما يمكن أن يحدث لو أن أحدهم رآنى أتسلل إلى مسرح جريمة قديم ..

ستكون النهاية الحتمية أن تستضيفنى الشرطة إلى أجل غير معروف حسبما أتصور ..

لن يصلح التهور الآن ، إن بعض التعقل قد يفيد أحيانًا ..

فى الطريق عائدة إلى الفندق ، أضاءت الدنيا أمامى بالأبيض والأسود ، وبعيدًا عن أنى شاهدت صورة قديمة للشارع على موقع الإنترنت ، وبغض النظر عن ظاهرة شوهد من قبل Deja vu الشهيرة ، فما من تفسير لذلك الذى رأيته ، وسمعته ، وشممته ، وأحسسته ، علميًّا على الأقل ..

* * *

سائرة بين فتاتين لهما ملامح آسيوية مختلفة ، وكنت أجملهن بلا منازع ..

نضحك حتى تهتز الأرض تحت أقدامنا ، مقبلات على الحياة الحلوة بسنى أعمارنا الغضة ..

تميل نحوى إحداهن وتهمس فى أذنى مشيرة إلى آخر الشارع المسدود ..

وفى آخر الشارع المسدود أراه ، واقفًا كفارس يبتسم وهو يدخن سيجارته الأثيرة ..

أبتسم فى خفر وهو يومئ لى ..

ثم بحركة ذات مغزى .. يشير نحو المنزل ، رقم ٢٢ !!

★ ★ ★

أفزعنى المشهد حتى الثمالة ، فهرولت فى بقية الطريق القصير إلى الفندق ، وصعدتُ نحو غرفتى على الفور ، لأجد فى انتظارى مفاجأة أخرى ..

كدت أصرخ عندما رأيته فى الداخل ، يقف فى منتصف الحجرة مرتعدًا وممسكًا بمفتاح يحمل شعار الفندق ، نفس الشعار المطرز على الجيب العلوى لزيه الرسمى ..

هو الحمال الذى رأيته بالأمس وقد عزف عن مساعدتى نظرًا لصغر حجم حقيبتى ، هو بملامحه السمراء وشعره الفاحم شديد النعومة الذى خط الشيب أسفل فوديه فحسب ، ولم يدُر فى رأسى لحظتها إلا تفكير سوداوى أخرق من نوع أنه إما يريد سرقتى أو اغتصابى أو ... إلى آخر قائمة الجرائم الممكنة ، فأوشك صراخ الفزع الرهيب على أن يفلت منى ، غير أن هتافه الهامس جعلنى أبتلع حنجرتى :

ـ (كاسيا) !

تبعها بكلمات لم أفقه منها حرفًا ، كان يتحدث بالماليزية أو الهندية أو الصينية أو الأردو أو أى لغة شبيهة بلا ريب ، المهم

أنه نطق بالاسم السحرى الذى جعلنى أبتلع صرختى لأسأله بإنجليزية ذاهلة :

ـ انتظر .. هل تعرفنى أيها السيد ؟!

صمت الرجل وأخذ يتفرس فى ملامحى بقوة ، قبل أن يستخدم إنجليزيته المتواضعة فى القول :

ـ (كاسيا) ؟! هل أنت (كاسيا) حقًّا ؟!

هززت رأسى أن نعم وأنا أسيطر على أنفاسى فى صعوبة ، وأفكر فى أن القدر سخى معى لأقصى حد لو كان هذا الرجل يعرف عنها شيئًا ، وما دام يعرف اسمها القديم فهو يعرف بضعة أشياء أخرى بكل تأكيد ..

(كاسيا) .. الاسم السحرى !

انطلق الرجل يرطن بلغته وقد أشرق وجهه ، فأوقفته براحتى وعدت أتحدث بالإنجليزية :

ـ معذرة أيها السيد ، لكنى لا أفهم شيئًا من هذه اللغة .. حدثنى بالإنجليزية لو كان هذا ممكنًا ..

بهت الرجل واستغرق لحظة يتأملنى قبل العودة لإنجليزيته المتواضعة :

ـ (كاسيا) .. ماذا حدث لك ؟! ألا تعرفيننى ؟!

من المفترض أن أعرفه إذن ، لكنى هززت رأسى بالنفى فى رفق وأنا أجاهد للتحكم فى خفقات قلبى الواجف ، وإذا بالرجل يقول فى أسى :

ـ رباه ، يبدو أن خبر انتحارك لم يكن صحيحا .. لقد اختفيتِ وفقدتِ الذاكرة إذن .. إنك لا تذكرينى ولا تستطيعين التحدث بلغتك الأصلية كما أرى ..

ـ أجل ، هذا صحيح .. لقد فقدت ذاكرتى !

فقدان الذاكرة عذر عبقرى حقًا ، وعبقريته الحقيقية أنه جاء فى وقته تمامًا ، فمسألة أننى امرأة مصرية تجاوزت الثمانين وتحتل بمخها جسد فتاة آسيوية تحت العشرين نتيجة عملية جراحية معقدة هو أمر يستغرق كثير من الإسهاب فى التفسير أولا ، وأجده عصيًا على التصديق بعض الشىء ثانيًا !

نظر الرجل نحوى فى إشفاق ، قبل أن يشير إلى صدره قائلاً :

ـ أنا (كومار) .. ألا تذكرين هذا الاسم ؟!

كلا بكل أسف ، إنه لا يقرع أية أجراس كما يقولون ..

ـ (كومار) الهندى ، صديق خالك (كازين) منذ سنوات الطفولة ، لقد حملتك على ذراعى هذا وأنتِ بعد طفلة رضيعة !

ـ خالى ؟!

إن لى خالاً إذن ، وهذا الرجل يعرفه .. يا له سخاء قدرى لم أتصور أن يبلغ هذا الحد إطلاقًا ..

قال (كومار) بمزيد من الأسى :

ـ لقد نسيت كل شىء كما أرى ، حتى (كازين) لم يعد له مكان فى ذاكرتك ، لكن .. هل نسيت أمك أيضًا ؟! تلك التى لم تذق للراحة أو للسعادة طعمًا منذ غادرتِ المنزل إلى حيث لا يعلم أحد أين !

ـ أمى ؟!

ثم أضاءت الدنيا بالأبيض والأسود ..

* * *

ينفتح الباب الخشبى بغتة ، وأندفع منه صارخة فى ألم ..

أسقط على الأرض بين شهقاتى ودموعى ..

يقف عند عتبة الباب رجل بوجه آسيوى متجهم ، لا يعرف الرحمة ..

ومن خلف كتفه يرتفع نواح امرأة لن تعرف للراحة أو للسعادة طعمًا منذ لحظتها ..

ـ لا مكان لساقطة مثلك بيننا ..

يهتف بها الرجل بلغته التى أفهمها ..

ثم يلقى بحقيبة صغيرة فى وجهى ..

يتناثر ما فيها من أغراض فتاة صغيرة فوق الأرض الحجرية .. ثم ينغلق الباب فى صفقة عنيفة ..

★ ★ ★

- خذنى إليهما ..

أقولها فور اختفاء الرؤيا الخاطفة ، أهتف بها فى رجاء ، فيبتسم الرجل الهندى الطيب ويقول :

- سيعيد هذا الحياة لقلب (آرينا) المسكينة ، أمك ..

ها هو الطريق نحو الحقيقة قد أصبح على مرمى حجر ، أو أقرب ..

- يجب أن أعتذر عن اقتحامى لغرفتك بهذه الصورة مستخدمًا المفتاح الرئيسى ، لو علم رؤسائى هنا لخربوا بيتى ، لكنى لم أصدق عينى عندما رأيتك تدخلين الفندق بالأمس ..

لم يكن سبب إعراضه عنى إذن مجرد صغر حجم حقيبتى .. كان يرى منتحرة تعود إلى الحياة فشلّته المفاجأة عن تقديم يد العون لها كما تقتضى أبسط مهام وظيفته أن يفعل ..

- والآن ، هلمى بنا إلى الحى الصينى !

أنا من أصول صينية إذن ، سليلة صناع معجزة هذا القرن ..

نعم ، إن الصينيين معجزة حقيقية ، يكفى أنهم ظاهرة عددية لم تتكرر ، فمن بين كل خمسة من كل سكان العالم ستجد هناك واحدًا صينيًا ، والأدهى أنهم قوم مسالمون عازفون عن الاندماج فى المجتمعات الحديثة ، يفضلون التشرنق داخل تجمعات سكنية وتجارية خاصة بهم يُطلق عليها الحى الصينى Chinatown فى أمكنة مختلفة من بقاع العالم القديم والجديد ، ستجد هذه الأحياء فى الأمريكتين وفى أوروبا وفى أستراليا ومتناثرة على خريطة آسيا بشكل ملفت للنظر ، وقد اعتبرتها أكثر الحكومات نوعًا من (الجيتو) المنعزل لأقلية تتزايد باطراد فعملت على منعها وإبادتها ، بينما استفادت حكومات أخرى أكثر ذكاء من هذه المناطق فى جعلها مراكز سياحية وتسوقية جذابة .. هذا بالإضافة إلى معجزة (الصين) الاقتصادية فى النمو الحديث والتى يمكن أن أتحدث عنها طويلاً دون أن يضيف هذا لمصيرى الغامض شيئًا من الوضوح ، كما يمكن لتداعى أفكارى أن يعرض أمامى مشاهد كاملة من فيلم (الحى الصينى) لـ (جاك نيكلسون) فى سيارة الأجرة التى أقلتنى بصحبة (كومار) ، فأنا من الجيل الذى عاصر روعة فيلم كهذا ..

وصلنا إلى (الحى الصينى) ودفعت لسائق السيارة أجره بالدولار ، ابتهج الأخير وتجمد وجه (كومار) الذى فكر أن الموضوع ليس مجرد فقدان للذاكرة ، إن فيه نقودًا كثيرة أيضًا ، لكنه تقدمنى على أية حال ..

ـ اتبعينى ..

سرت خلفه محاولة تخزين كل شىء فى شبكية عينى التى تشاهد ما حولى للمرة الأولى كـ (عصمت) ، غير أن الوضع ليس كذلك بالتأكيد بالنسبة لـ (كاسيا) ، أما (جيسيكا) فهجين من هذه وتلك ، مستسلمة فى إذعان لعبث التيار ، تتقاذفها ـ مثل طيور (أمل دنقل) ـ فلوات الرياح ..

(الحى الصينى) هنا فى (كوالا لامبور) عبارة عن شارع عريض ، تمتد الزينة ذات الطراز المعمارى المميز للشرق الأدنى فى سمائه الدانية ، وتتراص على جانبيه المتاجر التى تباع فيها كل ما يمكن تصوره ، ملابس وأحذية وحقائب وساعات وألعاب أطفال وعطور مقلدة وحتى أقراص الدى فى دى DVD المقرصنة المصورة من صالات السينما أو المنسوخة عن أصول أخرى ، تباع هنا بأثمان زهيدة ..

فجأة أضاءت الدنيا بالأبيض والأسود ..

* * *

ورأيته ..

الفارس المبتسم وهو يدخن سيجارته الأثيرة ..

يقف بجوار قائم خشبى تُعرضُ عليه أغلفة الأسطوانات الحديثة ..

وبجواره آخر ضئيل الحجم يساوم زبونًا على سعر عدد من الأسطوانات ..

الفارس ينظر إلى نهاية الشارع ..

حيث أبرزُ فى ملابس مدرسية زرقاء ، على ظهرى حقيبتى ..

وفى يدى علبة من حليب الأُرز أشربها فى تلذذ ..

فيما تميل صديقتى على أذنى ، وتهمس ..

ثم تعلو ضحكاتنا البريئة ..

أما بسمة الفارس ، فلم تكن تنطوى على أدنى قدر من البراءة ..

وإنما على أكبر قدر من الرغبة الدفينة ..

الآثمة !

* * *

ـ هاهو ذا ..

أفيق على هتاف (كومار) إذ توقف مشيرًا إلى متجر ضئيل محشور بين المتاجر ، ثم إنه تابع :

ـ لحسن الحظ أننا أتينا مبكرين قبل زحام الظهيرة .. هاهو محل خالك ، وهاهو خالك واقف بجوار الملابس المعروضة .. هيا ، اذهبى إليه ..

أنظر إلى حيث يشير ، ويقشعر بدنى بشدة ..

الرجل الصينى الذى داهمتنى رؤيته ..

(يقف عند عتبة الباب رجل بوجه آسيوى متجهم ، لا يعرف الرحمة ..)

(لا مكان لساقطة مثلك بيننا ..)

هو بملامح ملونة أكثر وضوحًا ، يعلق ثوبًا فى مشجب بحيث يظهر واضحًا للعيان ، ثم يهرش فى شعر رأسه الذى يبدو أشبه بالدبابيس السوداء والبيضاء ، ويشرد للحيظات فى تأمل الملابس الكثيرة المعلقة بالأعلى ..

ـ تعال معى ..

أقولها لـ (كومار) ، فيقول فى حرج :

ـ أخشى أن يكون الأمر خصوصيًا .. أنا لا أحب الدخول فى هذه المتاهات العائلية !

ـ تعال معى !

كررتها كالمشدوهة ، وجذبته من يده خلفى حتى توقفنا أمام الرجل الشارد فى تأمل معروضاته ..

ـ (كازين) ..

ناداه (كومار) بنبرة خافتة ، فالتفتت عيناه نحونا أخيرًا ، وتوقفت فوق ملامح وجهى بكل ما يمكن أن تحمله لفظة (كراهية) من معنى ..

لم أستطع النطق بكلمة ، وتولى (كومار) الحديث مشيرًا نحوى وذاكرًا اسم (كاسيا) .. فى الغالب كان يقول أن هاهى (كاسيا) قد عادت بعد أن ظنناها انتحرت ، وأنها فاقدة للذاكرة لذا فهى لا تفهم ما أقوله الآن ولا تستطيع التحدث إلا بالإنجليزية ولا تعرف أى شىء عما حدث لها !

فى الغالب كان يقول كل هذا ، دون أن ترتفع العينان الضيقتان الكارهتان للخال (كازين) عن وجهى ، وفى النهاية نطق بشىء ما مشيحًا عنا ، ومشيرًا بإبهامه إلى جهة قريبة ، قبل أن يعطينا ظهره ويواصل ما كان يفعله ..

سألتُ (كومار) :

ـ ماذا قال ؟!

فأجابنى فى حرج :

ـ يقول أنه لا يريد أن يراك .. وقد طلب منى أن أصحبك إلى أمك (آرينا) التى تلازم فراش المرض فى المنزل .. ربما أعانتها على الشفاء ، فهى لا تردد إلا اسمك ليل نهار ..

قلتُ وأنا أنظر إلى الرجل الذى أعطانى ظهره :

ـ كأنه لم يفرح لرؤيتى أعود حية ..

هز (كومار) رأسه قائلاً فى أسف :

ـ كان هذا متوقعًا !

ثم أشار لى أن أتبعه إلى المنزل القريب ..

ربما جلبتْ (كاسيا) العار لهذه العائلة بعملها فى صناعة البورنو ، وربما كان هذا سبب طرد خالها لها ونعته إياها بالساقطة ، وربما طارد الإحساس بالذنب (كاسيا) حتى انتحرت ، وحصلت مؤسسة (حياة جديدة) على جسدها بطريقة ما ، قصة بسيطة لا تستحق عناء السير خلف أذيالها ، لكنى أشعر أن الأمور ليست بهذه البساطة التى تبدو عليها ، خاصة وأن هناك أشياء كثيرة لم يتم تفسيرها بعد ، مثل أن هناك من يريد إقحامى الآن فى القصة لسبب أو لآخر ..

ـ هذا هو المنزل .. أتعشم ألا تُفرح رؤيتك (آرينا) إلى درجة مفارقة الحياة !

المنزل ..

(.. ينفتح الباب الخشبى بغتة ، وأندفع منه صارخة فى ألم ..)

هو نفس المنزل ، (كومار) يطرق الباب وتفتح لنا شابة صغيرة ، تتسع عيناها عند رؤيتى ، تندفع لاحتضانى وأنا ذاهلة عن كل شىء ، أنظر إلى (كومار) كأنى أستنجد به ، تبلل دموع الشابة كتفى ويحاول (كومار) التهوين من حرارة اللقاء قليلا ، يخاطب الشابة ويفهمها أننى فقدت ذاكرتى بلغة مفهومة لكليهما ، ثم يستدير نحوى قائلاً بالإنجليزية :

ـ هذه ابنة خالك ، (راشكا) ..

أحييها بإيماءة وأخاطبه :

ـ قل لها أننى فقدت الذاكرة ..

ـ لقد فعلت !

أدخلتنا (راشكا) بترحاب بالغ إلى باحة المنزل الناضحة فقرًا وعفونة ، وشممت رائحة الطعام الصينى المقيتة آتية من جهة المطبخ فمنعت نفسى من التقيؤ بصعوبة ، فى حين تقدمت (راشكا) نحو باب غرفة مفتوح ، ورفعت عقيرتها بالهتاف المستبشر ، لتقول شيئًا من قبيل أن (كاسيا) قد عادت أخيرًا من عالم الأموات يا أماه !

كنا قد بلغنا الباب عندما أنهت نداءها ، واستطعت من موقعى أن أميز المرأة التى أوهنها المرض فى استلقائها على السرير ، وهى تحاول النهوض بوجه يضحك ويبكى فى نفس الوقت ، هاتفة نحوى بكلمات كثيرة استطعت أن أميز فيها اسم (كاسيا) ..

وضع (كومار) يده على كتفى قائلاً فى حث هامس :

ـ إنها تريدك أن تقتربى ..

للحظة فكرت فى الهروب من كل هذا والعودة إلى المنزل والبحيرة والنوارس و(أم محمود) و(طارق) و(تمارا) ، لكن مشهد الأبيض والأسود تجلى أمام عينى فجأة ..

* * *

كنت أبكى وأنا أخبرها بالأمر ..

وكانت أمى تلطم خديها ولا تدرى ما الذى يمكن أن تفعله ..

تسألنى :

ـ (ليلى) تعرف ؟!

أهز رأسى بالإيجاب فتعاود المرأة لطم خديها ..

ثم يدوى غلق الباب فى الخارج كرصاصة تخترق صدرى ..

تشهق أمى قائلةً :

ـ خالك أتى .. يا للمصيبة ..

وأجهش أنا بالبكاء أكثر ، عندما يظهر وجه خالى (كازين) عند الباب ..

★ ★ ★

حيث أقف الآن ..

تقدمتُ من المرأة المريضة ـ أم (كاسيا) ـ فى بطء ، وعندما بلغتُ طرف سريرها احتضنتنى وأخذت تقبل وجهى وهى تبكى وتهتف بما لا أفهمه ، عند الباب كان (كومار) يمسح دموعًا هزمته وكانت (راشكا) تهتز فى نواح عنيف ، بينما سيطر على أنا شعور بالانفصال التام عن هذا الواقع العبثى الذى أعيشه ولا أعيشه ..

استطعتُ تخليص نفسى من بين يديها فى صعوبة ، وأخذت هى تحدثنى منتظرة إجابات ما ، فهتفتُ فى (كومار) :

ـ أخبرها يا (كومار) أننى فقدت الذاكرة ، وأننى فى حاجة لأن أعرف منها كل شىء ..

تقدم (كومار) وخاطبها بلغتها فنظرت إلى فى تعاطف ، وقالت شيئًا من قبيل أن الأهم هو كونى بخير ، وفى النهاية جمعتنا الجلسة شبه العائلية بجوار سريرها ، لتبدأ هى فى رواية ما لديها ، بينما (كومار) يؤدى دور المترجم الأمين على الوجه الأكمل ..

قالت المرأة المريضة أننى ابنتها الوحيدة التى تبقت لها فى هذا العالم بعد أن هجرها زوجها دونما سبب منذ سنين بعيدة ، كانت الخلافات قد احتدمت بينهما حتى أدت إلى أن خرج الرجل يومًا من المنزل ولم يعد ، ومن يومها إلى الآن لا أحد يعلم عنه شيئًا ، ربما يكون قد هاجر إلى بلاد أخرى ، ربما يكون قد مات ، سجن ، تزوج ، المهم أنها تولت عناء تربيتى وحدها ، هنا فى منزل خالى ، البائع فى (الحى الصينى) ، الذى فتح لها ولى ذراعيه بكل المحبة والشهامة ..

(.. أتذكر أبى بلا وجه ..

يتبادل السباب مع والدتى بصوت عال ، ثم يدفعها فتسقط على الأرض ..

يخرج صافقًا الباب خلفه ..

وأنا عند باب حجرتى ..

ممسكة بدميتى ..

أبكى بحرقة ..)

من أعماق هذه التربة الفقيرة القذرة نبتت زهرة (كاسيا) العطرة المبللة بالندى ، كانت الأم تساعد الخال فى العمل من أجل تأمين اللقمة والدراسة والكساء والدواء .. و(كاسيا) كانت محط أنظار الجميع فى (الحى الصينى) .. كانت تملك هذا النوع من الجمال الذى لا بد وأن يجلب المشكلات .. كل أسبوع تحدث مشاجرة على الأقل بسببها .. عشرات يحاولون التقرب منها فى الطريق من وإلى المدرسة .. كانت (كاسيا) تقاوم الجميع إلا أن حصون مقاومتها سقطت فى يسر أمام هجمات (ميور) المحنك الأريب فى عالم النساء ..

(وفى آخر الشارع المسدود أراه ، واقفًا كفارس يبتسم وهو يدخن سيجارته الأثيرة ..

أبتسم فى خفر وهو يومئ لى ..)

(ميور) كان الشاب الوسيم الطويل القامة والعريض المنكبين الذى يعمل فى بيع الأسطوانات المقرصنة فى (الحى الصينى) ، والذى يحلم بالغناء والشهرة والنجومية فى حين لا يملك بالكاد إلا قوت يومه ،

والذى اعترض طريق (كاسيا) واستغل قرابته بصديقتها المقربة (ليلى) من أجل أن يصل إلى قلبها ، وقد كان ..

(الفارس المبتسم وهو يدخن سيجارته الأثيرة ..

يقف بجوار قائم خشبى تَعرضُ عليه أغلفة الأسطوانات الحديثة ..)

ثم جاء نبأ اللعنة محمولا على لسان (كاسيا) إذ يخاطب أمها ..

(كنت أبكى وأنا أخبرها بالأمر ..

وكانت أمى تلطم خديها ولا تدرى ما الذى يمكن أن تفعله ..)

(ميور) استطاع أن يغرر بـ (كاسيا) ، وهى الآن .. حامل منه !

(ثم بحركة ذات مغزى .. يشير نحو المنزل ، رقم ٢٢ !!)

علم الخال (كازين) بالأمر من همسات السوق وغمزات الشباب بائعى الأسطوانات أصدقاء (ميور) ، وتأكد له الأمر عندما رأى دموع الأم والابنة ، فغلى الدم الشرقى فى عروقه ، وألقى بـ (كاسيا) وملابسها خارج المنزل دون أن يؤلمه ضميره ..

(لا مكان لساقطة مثلك بيننا ..)

اختفت (كاسيا) بعدها تمامًا ، والغريب أن (ميور) و(ليلى) قد اختفيا من (الحى الصينى) أيضًا ، وانتهت القصة بالنسبة للأم بعد عدة شهور ، عندما أتت الأنباء أن (كاسيا) قد انتحرت ، ولم يتم العثور على جثتها حتى الآن !

هكذا يتضح كل شيء ، ويتسع الضوء الأبيض والأسود أمام عيني ..

★ ★ ★

بطني منتفخ ، وأنا أصرخ من آلام المخاض ..

تميل (ليلى) ممسكة بذراعي وتقول :

ـ تماسكي ، سنصل إلى المستشفى بعد دقائق ..

الماء والدم يغرقان نصفي الأسفل ..

و(ميور) يقود السيارة المتهالكة ، مدخنًا في هدوئه القاتل ..

★ ★ ★

ليست الفضيحة بالنسبة لأهل (كاسيا) إذن هي العمل في موقع إنترنت إباحي ، إنه الحمل سفاحًا ، لعلهم لا يعلمون شيئًا عن المصير الأسود الذي لقيته بعد أن طُردت من المنزل ، ولعلهم لا يفقهون معنى كلمتي إنترنت أو بورنو من الأصل ..

معنى هذا أن (كاسيا) قد حملت إذن ، ومعنى ما أراه بالأبيض والأسود أنها أنجبت بالفعل ..

وصارت أمًّا ..

★ ★ ★

تقترب مني (ليلى) ، حاملة قطعة صغيرة من اللحم الأحمر تصرخ طالبة الرضاع ..

أنظر إليها باسمة في إنهاك دون أن أقوى على التكلم ..

تقول (ليلى) :

ـ انظري إليه .. ألا يشبه (ميور) كثيرًا ؟!

★ ★ ★

رباه .. هذا أبعد مما كنت أتصور بملايين السنين الضوئية !

أنا أم ؟!

أنا ـ سواء كنت (كاسيا) أو (جيسيكا) أو (عصمت) ـ أملك امتدادًا جينيًّا لي في هذا العالم ؟!

مفهوم أنني بعد أن طردني خالي قد ضاق الحال بي فغرقت في مستنقع الرذيلة والإباحية ، لكني لم أتصور أن أكون وقتها حاملا ، وأن هناك طفلاً ما قد أنجبه رحمي ..

يجب أن أفهم أكثر ..

يجب أن أفهم ..

قلّبت أصابعي في حقيبة يدي وأخرجت كل أغلب ما فيها من دولارات وجنيهات وعملات أخرى ووضعتها على الطاولة المتسخة ، بجوار السيدة المريضة التي أنجب رحمها جسدي ، فتعلقت الأنظار بالنقود في سهوم ، وسألتُ الأم فترجم (كومار) :

ـ ما هذا ؟!

ـ بعض النقود لتساعدها على العلاج .. سأرسل لها بالمزيد عندما أعود إلى الفندق ..

ترجم لها (كومار) فانعقد لسان المرأة ، ولم تدر ماذا تقول ..

نهضتُ قائلة :

ـ هيا يا (كومار) ، سنعود إلى (الحى الصينى) ..

نهض يسألنى :

ـ لماذا ؟!

ـ يجب أن أعرف طريق (ميور) .. لابد أن أعثر عليه ..

تفكيرى البديهى : مادام هو والد الطفل فلابد أنه يعرف عنه كل شىء ، على الأقل سوف يعرف إن كان لا يزال حيًا أو ...

قال (كومار) :

ـ لكنه مختف منذ اختفيتِ أنت ..

ـ لا بد أن أحدًا من أصدقائه القدامى يعرف طريقه .. فكر يا (كومار) ..

فكر (كومار) ، ثم تفتقت قريحته عن :

ـ (نجم الدين) .. لقد كان شريكه فى بيع الأسطوانات قبل أن يختفى (ميور) وينفرد (نجم الدين) بتجارتهما المشتركة ..

(وبجواره آخر ضئيل الحجم يساوم زبونًا على سعر عدد من الأسطوانات ..)

ـ هلم بنا إذن ..

وعدنا إلى (الحى الصينى) الذى ازدحم بالسياح ، لكننا عرفنا طريقنا إلى (نجم الدين) فى سرعة ، وقد أذهله مرآى كما أذهل كل من رآنى هنا حتى الآن ..

ـ (كاسيا) ؟!

هتف بها (نجم الدين) ، فأومأت برأسى وقلت :

ـ أجل .. أين (ميور) يا (نجم الدين) ؟!

تحدثتُ بالإنجليزية لكن اسم (ميور) أوضح السؤال تمامًا ، ومن باب الاحتياط ترجم (كومار) سؤالى ، فهرش الفتى الضئيل فى ذراعه وقال هازًا كتفيه بإنجليزية ضعيفة :

ـ لا أعلم .. لقد اختفى منذ ...

قاطعته فى صرامة :

ـ (نجم الدين) ..

نظر الفتى نحوى ، ورأى أصابعى ممتدة بحفنة وافرة من الدولارات :

ـ خذ ، ربما ينعش هذا ذاكرتك ..

انفرجت أساريره وهو يخطف الورقات الخضراء من يدى قائلاً فى بسمة كلبية :

ـ رأيته منذ فترة قريبة يؤدى فقرة فنية فى قاعة ديسكو لا تبعد عن هنا كثيرًا .. يمكننى اصطحابكما إلى هناك الآن نظير مبلغ مماثل ..

عرجنا على آلة سحب نقود ومنحته ثلاثة أضعاف المبلغ الذى طلبه ، فأسرع بنا إلى هناك ..

إلى حيث تنتظرنى كثير من الإجابات على أسئلة مفتوحة كالسماء ..

★ ★ ★

أشباح .. فى المنفى !

(١)

وصلنا ـ (كومار) و(نجم الدين) وأنا ـ إلى صالة الديسكو وظلال العصر تتعلق على أسفلت الشارع أمامنا ، وهناك رأيت صورة (ميور) بسترة جينز تكشف شعيرات صدره ، وعلى رأسه منديل بألوان العلم الأمريكى مع نظارة شمسية تخفى عينيه ، وبجوار صورته صورة لـ (ليلى) ترتدى ملابس ضيقة من الجلد الأسود ، معطية ظهرها المكشوف للمصور فى وضعية إغراء شهيرة ، وكانت الصورتان معلقتان على لوحة كبيرة مكتوب عليها بالماليزية إعلان عن حفل يحيانه كل ليلة هنا فى هذه الصالة ؛ كما يمكن الاستنتاج بسهولة ..

تولى (كومار) التحدث والسؤال عنهما ، فأجابه أحد المسئولين عن الأمن أن السهرة اليومية تبدأ فى العاشرة مساء ، وقبلها لن يمكننا الدخول إذ الصالة مغلقة حتى وقتها ، فكرت أن أدفع له حتى يلين معنا أكثر لكن (نجم الدين) همس لى ألا أبعثر نقودى إذ الصالة خاوية على عروشها بالتأكيد فى هذا الوقت من اليوم ، والأفضل أن أعود فى الليل حتى أقابل (ميور) الذى أثبتت الصور وجوده الفعلى ..

وجهة نظر معقولة ، رغم أنى لا أعرف كيف سأصبر طوال هذه الساعات حتى العاشرة ..

تركنا (نجم الدين) وعاد إلى (الحى الصينى) ، واتخذت مع (كومار) الطريق إلى الفندق فى سيارة أجرة ، وكان هو ينظر فى ساعته قائلاً فى توتر :

ـ لن أندهش لو فُصِلتُ من عملى ، فقد تغيبت لساعات طويلة دون سبب ..

قلت وأنا أمد يدى إلى حقيبتى :

ـ لا تقلق ..

وأخرجت دفتر شيكات ، ثم ملت عليه أسأله :

ـ كم يكفيك ؟!

انعقد حاجباه وهو يسألنى :

ـ من أجل ماذا ؟!

هززت كتفى قائلة فى بساطة :

ـ إنك لن تساعدنى مجانًا ، اعتبره تعويضًا عن أضرار العمل ، مكافأة تستحقها عن جدارة ، أجر لعملك معى بالساعة .. أى شىء .. خمسة عشر ألف دولار يكفونك ؟!

(الثروة التى ألقى بها (نعمان) ضخمة ، وأنا لم أتعب فى جنيها ، كما لم يتعب (نعمان) رحمه الله هو الآخر .. كل هدفى الآن أن أحاول إسعاد من أعرفهم بها على الأقل ..)

ظل (كومار) ينظر إلى كأنه يحاول أن يفهم ، فعدلت عرضى إلى :

ـ ثلاثون ؟! خمسون ألف ؟! مائة ألف دولار لو أحببت ؟!

(أتصور هذا هدفًا جليلا ولا أتصور أن أحدًا يخالفنى وجهة النظر ، وعلى المتضرر اللجوء برأسه إلى أقرب حائط !) ..

ظل (كومار) صامتًا كأنه يحاول فك طلاسمى ، فبدأت أحرر الشيك قائلة :

ـ سأوقعه على بياض وأترك لك وضع الرقم الذى تحب .. ما رأيك ؟!

مزقت الشيك وأعطيته له ، فما كان منه إلا أن مزقه نصفين وألقى به من الشباك المجاور له !

نظرت إليه أنا فى صمت هذه المرة ، وسألته :

ـ ألا تريد نقودًا ؟!

قال :

ـ لقد صحبتك طوال النهار لأنك ابنة أخت صديق عمرى ، لا انتظارًا لمكافأة ما ..

ـ لكنك فرطت فى فرصة عظيمة قد لا تتكرر أبدًا ..

ـ أعتقد أن كثرة الأموال تجلب من الهموم أكثر مما توفر الراحة .. إننى مستعد للبحث عن عمل آخر إذا فصلونى من الفندق ، عمل فى حدود إمكاناتى وفى نطاق أجرى الحياتى المعتاد .. لكنى لست على استعداد لاستقبال ثروة هابطة من السماء دون تعب .. صدقينى ، لقد رأيت أناسًا ينهارون فى سبيل جمع الثروة ثم فى سبيل الحفاظ عليها ، ولست أريد أبدًا أن أكون واحدًا من هؤلاء !

صحبنى حديثه الهادئ حتى غرفتى ، وظل يتردد فى ظلمات عقلى بصدى عميق ، عميق ..

حاولت النوم دون جدوى ، حتى دهمنى الأبيض والأسود ..

* * *

وكنت جالسة بوجه مضرج بالحمرة ، فى وضع تصوير مخجل ..

يهتف بى (ميور) :

ـ انظرى إلى هنا ..

ثم يسطع فلاش الكاميرا فى وجهى ..

ويشير لى (ميور) من وراء العدسة بإبهامه ..

ـ هيا ، الوضع التالى !

* * *

نهضتُ فى فزع ، هربتُ إلى شرفة الغرفة كأنى أحتمى بالهواء فى الخارج من الاختناق بضيق الجدران وبشاعة الفكرة ، يبدو أن (ميور) قد غرر بـ (كاسيا) إلى حد أنه هو الذى دفعها دفعًا لاحتراف بيع جسدها فى صور ملونة على شبكة الإنترنت !

لكن ..

من أين تأتى صور الأبيض والأسود هذه ؟!

من أين والمفترض أن (كاسيا) ماتت فعلا ؟! ومن مات لا يمكن أن يتذكر !

هل حلت روحها مرة أخرى فى جسدها الذى أصبح جسدى ؟!

كيف أتذكر ما مرت به هى إن كنت لم أعشه ؟!

هل يتذكر الجسد فى غياب المخ ؟!

نهر من الحيرة يعترضه فجأة سد الأبيض والأسود ..

* * *

أنا وراء الكاميرا ، كاميرا فيديو هذه المرة قديمة من طراز ANALOGUE ..

أمام العدسة يجلس (ميور) ، ويتحدث ..

ـ أقر وأنا فى كامل قواى العقلية بأنى مقدم على الانتحار بكامل إرادتى ، لأن هذا العالم لم يفهمنى !

وأنا وراء الكاميرا ، أبكى ..

دون أدنى صوت !

* * *

يبدو أن العبث قد بدأ يشتد ..

من المفترض أن أكون أنا من سجل هذه الرسالة على الشريط لا هو !!

معنى هذا ببساطة شديدة أننى على شفا حفرة من جنون مطبق ، أو لعلى جننت فعلا دون أن أدرى ..

سحبت نفسى من الشرفة إلى الداخل ، وتحت دش الحمام تركت المياه تنساب وتغسلنى لعلى أتطهر من ذنوب لم أرتكبها ..

المياه تنساب على جسدى ، الذى ليس جسدى ، والأبيض والأسود يهجمان بكل عنف ..

* * *

صحوت من النوم فجأة عندما شعرت أن طفلى ليس بجانبى ..

وبالفعل لم أجده فى فراشه الصغير ..

هرعتُ إلى خارج غرفة النوم ، وكانت (ليلى) هناك تبكى ..

أدرت وجهها نحوى أسألها :

ـ أين (كازين) ؟!

فأجابتنى :

ـ أخذه (ميور) إلى المستشفى ، لم يكن يتحرك منذ نام ليلة أمس .. لم يكن يتنفس حتى !

صرخت فيها :

ـ ولماذا لم يوقظنى ؟!

قالت باكية :

ـ لم يرد أن يزعجك ..

صرختُ منهارة ، لقد انتقمتْ منى السماء ، وأخذتْ (كازين) الذى لم يبلغ شهرًا واحدًا من العمر!

* * *

أطلقتْ (كاسيا) على طفلها اسم خالها إذن : منتهى الوفاء !!

أتأمل فى ملامحى الشاردة أمام المرآة بعد أن استحممت ، وأقرأ فى عينى اللتين ارتسمت حولهما هالتان من السواد إرهاقًا ورغبة فى الخلاص لا تجىء ..

ثم ..

* * *

يمد (ميور) يده بالورقة وينتظر أن أضع توقيعى فى الخانة بالأسفل .. أتردد ، فيقول :

ـ إنها الطريقة الوحيدة لكى نستطيع أن نكسب عيشنا حتى تنجبى ، ونتزوج !

ـ لكن .. سأخلع ملابسى أمام الكاميرا ؟!

ـ من يمكن أن يتعرف عليك ؟! إن كل الآسيويات تتشابهن !

ـ أشعر أنى أنتهك إنسانيتى ..

ـ الجوع سينتهكها أكثر .. هيا ، وقعى لأجل خاطرى ..

ولم يكن أمامى إلا الإذعان ، بقلم يرتعش بين أصابعى ..

* * *

جاء الموعد أخيرًا ، وفى العاشرة تمامًا هبطتُ إلى بهو الفندق فلم أجد (كومار) ، أخبرونى بأنه تم فصله من العمل ، وبأنه خرج منكسرًا يجرجر قدميه ..

لم يفكر حتى فى الاتصال بى ، هذا رجل عزيز النفس حقًا ، وسأعرف كيف أجده وأعوضه بعد إتمام مهمتى الأساسية ..

سيارة أجرة إلى صالة الديسكو ، وفى الطريق ..

* * *

يمسك (ميور) الموسى الحادة ، ويقربها من رسغه قائلاً فى ألم :

ـ سأفعلها أولا ..

أمد يدى نحوه ، أوقف يده وأتناول الموسى قائلة بإصرار :

ـ كلا ، أنا أمه ويجب أن ألحق به قبلك ..

ـ لكن ...

يبتر عبارته دون أن أقاطعه ، إذ أمر بالطرف الحاد على رسغى الأيمن ، وتتدفق الدماء حمراء كثيفة وغزيرة إلى أرضية الحجرة ..

تنسحب الحياة منى رويدًا رويدًا ، يبدأ الضباب فى التكاثف أمام عينى حتى يختفى كل شىء ، وجه (ميور) والسرير والحوائط وكاميرا الفيديو التى توقفت عن التصوير ..

وأمام ناظرى ، تشتعل النيران ، ويضحك الجحيم !

* * *

هبطتُ من سيارة الأجرة أمام صالة الديسكو وقد كونت صورة ذهنية مقربة لما حدث :

طفلى الصغير مرض ومات ، الشعور بالذنب الذى أججه (ميور) فى أعماقى جعلنا ـ أنا وهو ـ نقرر الانتحار معًا ..

أقدمتُ على الانتحار قبله ولم يلحق هو بى ، راجع نفسه وكأى وغد محترم تراجع عن قراره واستمرتْ حياته بعد أن تم رحيلى بالفعل ، حذَفَ خطاب انتحاره وأبقى خطابى على الشريط داخل المنزل ٢٢ الذى كنا نقيم فيه معًا ، ليعيش بعدها حياته العابثة مع صديقتى الخائنة وقريبته (ليلى) ، وها هما الآن معًا يقدمان حفلا صاخبًا فى قاعة ديسكو أشبه بالماخور ، إذ يدخله أحط أنواع البشر من الجنسين ..

نظرية أنيقة لكنى فى حاجة لإسكات الصوت الصارخ فى أعماقى بأنى مخطئة فى شىء ما .. أو بأن نظريتى غير مكتملة على الأقل ..

ما هو الناقص ؟!

أين الخطأ بالتحديد ؟!

لا أدرى ..

كان الدخول ممنوعًا للفرادى لكن النقود تكلمت وجعلت فى استطاعتى الدخول بمفردى ، وفى الداخل كان الإيقاع صاخبًا ، والزحام شديدًا ، والرائحة خانقة ، والأضواء الملونة تندلع وسط الظلام والدخان ، وكئوس الكحوليات تروح وتجىء ، والرقص على خشبة المسرح الدائرية ينضح عرقًا والتواءات وخلاعة ، وفى الخلفية رأيتهما معًا ..

(ميور) فى ملابس بوهيمية يمسك جيتارًا كهربائيًا ويصرخ بالغناء المجنون فى المايكروفون أمامه ، وبجواره (ليلى) بشعر مصبوغ بالأخضر وبملابس جلدية تبرز الوشوم الهائلة على امتداد ذراعيها وظهرها والحلقات المعدنية اللامعة تخترق ثقوبًا فى أنفها وأذنيها .. كانت تتلوى كأفعى ، وتغنى عندما يحين دورها فى الغناء ..

سيكون لقائى بهما فريدًا من نوعه ، أستطيع أن أراهن على هذا ..

التهمت الضوضاء أعصابى وأنا أدور كنحلة دائخة فى زحام الصالة الضيقة ، باحثة عن طريق يؤدى بى إلى كواليس الخشبة التى يغنيان فوقها دون جدوى ، وقررت فى النهاية أنه قد حان الوقت لكى تتكلم النقود ..

جلست فوق أول مقعد خال على البار ، وانعكست الأضواء الملونة على وجهى إذ أهتف :

ـ هل تتحدث الإنجليزية ؟!

توجهت بالسؤال لفتى البار الذى نظر إلى مليًا قبل أن يدنو منى سائلا بنبرة عالية :

ـ (سكوتش) أم (براندى) ؟!

وضعت رزمة دولارات فوق الحائل الخشبى بينى وبينه ، وأنا أهتف حتى يسمعنى بوضوح من المرة الأولى :

ـ كواليس ..

مد يده وأخفى الرزمة فى جيبه ، الأمر الذى شجعنى على الاستمرار :

ـ أريد أن أعرف طريقها ..

هز كتفيه وأشار إلى مدخل الصالة قائلاً :

ـ الأمر بسيط .. مدخل الكواليس فى الطابق الثانى .. عليك بمدخل البناية المجاورة فى الخارج ..

شكرته بهتاف زاعق آخر ، ثم قفزت من فوق المقعد إلى الخارج رأسًا ..

عبر مدخل البناية المجاور صعدت بضع درجات دون أن يعترض طريقى أحد ، وبمجرد عبورى للباب المعدنى نصف المغلق ، دوت ضوضاء الديسكو فى أذنى من جديد ، فعرفت أنى عثرت على الطريق الصحيح ..

كان هناك سلم معدنى يصعد من أسفل خشبة المسرح إلى هنا ، حيث غرفة وحيدة طاوعنى بابها فى الانفتاح بكل يسر ، وسارعت بإغلاقه خلفى ، لتتفقد عيناى المكان الذى يفوح بروائح كريهة ، ولا ينيره إلا الضوء الأحمر الشاحب عبر مصباح صغير مثبت وراء الباب ..

صور نجوم (الروك) و(الهيفى ميتال) تغطى الجدران وتعطينى إيحاء بأنى دخلت الجحيم بقدمى ، بضعة مقاعد خشبية أغلبها مقلوب ومهشم ، بقايا آلات موسيقية ، زجاجات كحول فارغة ونصف

ملآنة وأكواب مهشمة أو متسخة ، سطور الهيروين والأنابيب الدقيقة المستخدمة فى الشم العميق ، أعقاب السجائر البرينة والمحشوة بالماريجوانا ، المحاقن والإبر والقنانى الملوثة بالدم المتخثر والأربطة المطاطية التى يستخدمها المدمنون فى ربط أذرعتهم عند التعاطى ، ثم ذلك الجسم المعدنى الأسود فوق المقعد الخشبى فى الركن القريب ..

الجسم الذى يتضح كنهه عندما أقترب ..

الجسم الذى لم يكن سوى .. مسدسًا ؛ حملته بيدى وأخذت أحدق فيه برعب هائل ..

ثم دوى الهتاف الأنثوى فى مكبر الصوت على خشبة المسرح بالأسفل ، كانت (ليلى) تقول :

ـ لا تذهبوا إلى أى مكان أيها الفتية والفتيات .. سنعود إليكم بعد دقائق ..

ويعلو هتاف حثالة البشر المتحلقين حولها وحول (ميور) فى رقص شعائرى مقيت ..

صوت الأقدام الصاعدة على السلم المعدنى فى الطريق إلى هنا ، لابد أن (ميور) و(ليلى) سيأخذان استراحة قبل الوصلة الثانية ، سيصعدان إلى هذه الغرفة و ...

انفتح الباب ، ودخلا ..

وعندما انغلق ، ظهرت أنا من خلفه موجهة مسدسي إلى ظهرهما ، دون أن ينتبه أى منهما إلى وجودى بعد ..

ـ مساء الخير أيها النجم والمغنية الجميلة !

شهقت (ليلى) وهى تستدير نحوى ، واندست فى ذراع (ميور) الذى استدار نحوى بدوره ، ولم تصدق عيناه ما تريانه ..

الوجهان كانا أشبه بجثث المشرحة دون مبالغة ، وانعكاس الضوء الأحمر على تعبير الفزع المرتسم عليهما صنع لمرآهما انطباعًا شيطانيًا فى عينى ؛ انطباعًا جعلنى أكرههما أكثر وأكثر ..

ـ أنتما تدينان لى بالكثير من التفسيرات ، أليس كذلك ؟!

كنت أتحدث بالإنجليزية ، وبينما أخذت (ليلى) ترتجف تحت ذراع (ميور) ، كان الأخير يحاول السيطرة على رعبه والنطق بكلمات لم أفهمها وإن كانت تحوى اسم (كاسيا) ، ومن إشارته للمسدس الذى أشهره نحوهما فهمت أنه خائف حتى الثمالة ، ناهيك عن عودة شبح الميتة أصلاً تحت هذا الضوء الأحمر المرعب ..

صرخت فيه أقاطعه :

ـ بالإنجليزية أيها الأحمق حتى أفهمك ..

صرخت (ليلى) تحت ذراعه ، وبدأ لسانه يطاوعه ليحدثنى بلغة مشتركة بيننا :

ـ حسن .. حسن .. اهدئى يا (كاسيا) .. واخفضى هذا السلاح من فضلك ..

هتفت فيه بحدة :

ـ ليس قبل أن أفهم منكما كل ما حدث لى ، ولابنى !

قالت (ليلى) وصوتها يختنق بالبكاء :

ـ أنت تعرفين إذن ..

صحت فيها :

ـ أعرف بعض الأشياء ، وقد عدت لأعرف أكثر ..

هتف بى (ميور) مهونًا :

ـ إنه بخير .. بخير يا (كاسيا) العزيزة ..

ماذا ؟! بخير ؟!

يبدو أن سلسلة المفاجآت تأبى أن تنقطع !

ـ ماذا تعنى ؟! ابنى لم يمت ؟!

صحت بها فى ذهول عارم وأنا أصوب المسدس إلى رأسه ، فصاح مجددًا وقد كاد يبلل سراويله :

ـ كلا .. إنه بخير .. أراه فى بعض الأحيان كما يقضى الاتفاق بينى وبين من يرعونه .. يمكننى أن أدلك على مكانه أيضًا !

ابنى ؟!

ابنها ؟!

تبًّا لى ولها !

كانت (ليلى) قد انهارت وصوتها يختنق بالدموع ، وقد هتفت مشيرة إلى (ميور) :

ـ لا ذنب لى يا (كاسيا) ، صدقينى .. هو الذى خطط وفعل كل شىء .. هو صاحب فكرة بيع الطفل إلى أولئك الناس !

بيع الطفل ؟!

طفلى ؟!

طفلها ؟!

أى وحش منزوع القلب أنت يا (ميور) !

كان (ميور) يهتف فيها بما لا أفهمه ، ثم إنه استدار نحوى قائلاً ببسمة مضطربة بائسة :

ـ دعكِ منها يا عزيزتى .. إنها مدمنة فى حالة هذيان .. سكّيرة لا تفقه ما تقول ..

شل الذهول لسانى عن النطق ، بينما أمسكت (ليلى) بذراع (ميور) وألقت به فى عنف ، مواصلة نشيجها وهتافها المسعور :

ـ بل أنت سبب كل المصائب من البداية .. أقنعتنى أن بيع الطفل سيجلب لنا الكثير من النقود .. أنت السبب ..

وانهارت (ليلى) على الأرض كلية ، ممسكة بساق مقعد خشبى ومواصلة نواحها المجنون ، فى حين حاولت أنا السيطرة على نفسى ، إذ قلت لـ (ميور) فى غير تصديق :

ـ بعت الطفل ؟! ابنك ؟! بعته يا (ميور) ؟!

حاول (ميور) أن يبدو متماسكًا وهو يقول مطوحًا كفيه فى الهواء :

ـ ليس الأمر هكذا يا عزيزتى .. لقد منحته لأناس أثرياء حتى ينشأ فى مناخ صحى ، لا بين أب مثلى وأم مثـ ...أنت تعلمين أننا غير مؤهلين للقيام بهذه الأدوار المعقدة .. بالإضافة لهذا ، لقد منحونى ثلاثة آلاف دولار كاملة .. إنه وضع رابح ـ رابح كما يقولون !

صاحت (ليلى) وهى تحتضن ساق المقعد أكثر :

ـ هذا ما أقنعنى به أيضًا عندما قررنا أن نبيعك أنت أيضًا يا (كاسيا) !

صاح فيها (ميور) بغضب مستعر أن تخرس ، فى حين تجمدت يداى فوق المسدس ، والضوء الأحمر أمام ناظرى يتحول إلى أبيض .. وأسود ..

* * *

أصبحتُ جثة غارقة فى دمها ، و(ميور) عند طرف السرير يراقبنى بوجه بارد ..

دخلتْ (ليلى) عبر الباب ووضعت يدها على فمها هاتفة فى خفوت :

ـ ماتت ؟!

قال (ميور) بصوت بارد :

ـ انتحرت .. وتظن أنى سأفعلها خلفها ..

اختنق صوت (ليلى) :

ـ قتلتها !

ـ بل قتلت نفسها ، هذا ما سيقوله الشريط الذى سيعثرون عليه هنا .. أما الجثة .. فستجعلنا نربح عدة آلاف أخرى من الدولارات ..

ـ ستبيعها ؟!

ـ إنه وضع رابح ـ رابح كما يقولون .. هيا ، ساعدينى لنحملها فى غطاء السرير ، ولننظف كل هذه الفوضى الدموية هاهنا ..

* * *

لو أن الوقت والظرف والمكان كانوا يسمحون لى بالغوص فى أعماق العلاقة المركبة بين زوايا المثلث الذى هو أنا ؛ مثلث (عصمت) و(كاسيا) و(جيسيكا) ، لسألت نفسى سؤالا بسيطًا :

كيف أتذكر الآن ما حدث والمفترض أنى مت وقتها ؟!

الإجابة : لا إجابة!!

* * *

لكن الوقت والظرف والمكان لم يكونوا يسمحون بأى من هذا الترف الفكرى ، فـ (ليلى) كانت تواصل هذيانها المحموم :

ـ لن أخرس .. لقد بعثها إلى هؤلاء العلماء المخابيل وها هم قد أعادوها حية .. شبح الضحية عاد لينتقم منا يا (ميوووور) ..

فقد (ميور) أعصابه ، وكال لها سبابًا آسيويًا مع ركلة قوية فى وجهها ، سالت لها الدماء عبر أنفها وهى ترتد إلى الوراء فى عنف ، ثم تفقد الوعى ، قبل أن يلتفت (ميور) نحوى لاهثًا كمصارع فى قلب حلبة قتال ، ليجد ماسورة المسدس موجهة نحو رأسه تمامًا ..

ـ والآن .. ماذا تريدين ؟!

وغد مثله باع ابنه للأثرياء وباع جثة حبيبته إلى مؤسسة (حياة جديدة) ويعامل شريكته بهذا العنف والجبروت جدير برصاصة تنهى حياته على الفور ، لكنى لن أفعلها قبل أن أعرف :

ـ مكان الطفل .. يجب أن أراه ..

فرائصى ترتعد وأنا أجاهد لإخفاء ارتعادها ، بينما فتش هو جيوبه فى سرعة ، قبل أن يناولنى بطاقة سوداء مدون فوقها حروف بيضاء أنيقة ..

ـ خذى ، هذا هو العنوان الذى أعطونى إياه عندما أحب أن أراه ..

تناولت البطاقة بيد مرتجفة ، فى حين تابع هو مضيقًا عينيه القبيحتين :

ـ والآن اغربى عن وجهى ، وعودى إلى الجحيم الذى أتيتِ منه ، عودى بلا رجعة هذه المرة ..

ـ سأفعل ..

وبمنتهى السرعة غادرت الغرفة ، ولم أدر كيف هبطت السلالم المعدنية ، ولا كيف تجاوزت خشبة المسرح الصغيرة إلى قلب صالة الديسكو حتى يخفينى الزحام فى حالة إذا ما راود (ميور) نفسه عن تعقبى .. وفى النهاية استطعت الخروج من جهنم هذه على قدمى ، واستقللتُ سيارة أجرة ناولت سائقها البطاقة التى تحوى العنوان ، وأخذت أحاول ضبط أنفاسى واستجماع ما تبقى من شتات أفكارى على أريكة السيارة الخلفية ..

* * *

أنزلتنى السيارة على الطريق السريع ، ثم مضت تاركة إياى وحدى ، ووقفت أنا أنظر إلى القصر الفخم بنوافذه المضاءة وأسواره العالية والأشجار المتشابكة عند مقدمته ، وأنا لا أصدق أننى قد بلغت هذا الحد من اندفاعى غير محسوب العواقب ..

فى البداية أوافق على انتقال جسدى من امرأة عجوز إلى فتاة مراهقة ، ليتضح أن لهذه المراهقة ماضيًا ملطخًا بالعار والندم ، وأن لها ابنًا بين جدران هذا القصر المنيف ..

ابنى .. ابنها .. أم ابننا معًا ؟!

من الناحية التقنية فقد أنجبه رحم هذا الجسد ، لكن .. من الناحية المعنوية لست أمه ، أنا امرأة أخرى تشعر بالحنين لرؤيته واحتضانه ربما لأنها لم ترزق فى حياتها الأولى بطفل ، وربما لأن الشوق له مازال يخفق فى قلب الفتاة التى ماتت منتحرة !!

نفضتُ الأفكار المربكة عن رأسى المثقل ، وخطوت نحو البوابة الحديدية الكبيرة الموصدة ، لأضغط زر الجرس المثبت إلى جوارها ، وانتبهت بعدها إلى أزيز الكاميرا العلوية التى استدارت نحوى ، تنقل صورتى لمن هم فى الداخل ..

يبدو أن مظهرى لم يكن مثيرًا للشكوك ، فقد انفتحت البوابة فجأة ، وامتد أمامى الطريق نحو القصر ، ما على إلا أن أخطوه ..

وخطوتُه !

صعدت الدرجات نحو البوابة الخشبية المفتوحة على مصراعيها ، ثم سرتُ نحو القاعة الواسعة المؤثثة فى فخامة وأريحية ، وتوقفت أمام السلم الرخامى الكبير الصاعد لأعلى ، ليأتينى الصوت الذى ميزته على الفور :

- مرحبًا بك يا سيدتى ..

ثم ظهر قائلها عند قمة الدرجات الرخامية ..

خمسينى ، أصلع الرأس ، أشيب الشعر ، أزرق العينين ، ممتلئ القوام ..

مازال يرتدى بذلة من الصوف الإنجليزى الفاخر ذات ذوق عال وألوان متناسقة ، وما زالت لهجته الباردة ممضوغة كديدن الإنجليز ..

- أتيت فى موعدك بالضبط كما أرى !

كان يجب أن أتوقع هذا من البداية ..

إنه الدكتور (توم كوارتز) ..

(هو أحد أعضاء مجلس إدارة المؤسسة ، بريطانى الأصل ، وأحد أساطين جراحة المخ والأعصاب فى العالم ..)

* * *

(٢)

- كان يجب أن أتوقع هذا من البداية !

قلتها وأنا أملأ عينى من ملامحه ، إذ يهبط الدرجات الرخامية نحوى فاردًا ذراعيه والبسمة تكسو شفتيه إذ تتحركان :

- لم أتصور أن تكون تجربتنا معك ممتعة إلى هذه الدرجة يا عزيزتى (جيسيكا) ، لقد بدت أشبه بفيلم إثارة قمنا نحن بإخراجه ، بينما تستحقين أنتِ أوسكار أفضل ممثلة رئيسية عن جدارة ..

قلت وأنا أرتب الأفكار فى رأسى :

- أنتم إذن من أرسل لى بشريط الفيديو الذى يصور رسالة انتحار (كاسيا) !

هز رأسه بالإيجاب ، ثم قال :

- ونحن أيضًا من وضعنا وصلة الصور على موقع (الجمال الآسيوى) فى البريد الإلكترونى الخاص بالطالب (مؤمن) ، أما بقية المعلومات فقد استطعتِ أن تجمعيها بمهارة فريدة ، تليق بمن كانت يومًا تحمل اسم الدكتورة (عصمت زين الدين) ..

سألت ودماء الغيظ تصعد فى رأسى :

ـ وفيم كل هذا العناء ؟! ما الذى جنيتموه من هذه العبة ؟!

هز كتفيه وقد بلغ الدرجة الأخيرة ، وأصبح فى مواجهتى ، لا يفصل بيننا إلا متران أو أقل :

ـ إنها تجربة مفيدة بأكثر مما يمكنك التصور .. الحقيقة أننا نواجه مشكلة مع زبائننا بعد أنْ تنتهى عملية نقل المخ بنجاح .. يمكنك أن تطلقى على هذه المشكلة تعبير (عَرَض جانبى) من منظور طبى .. ونعتبره بلغة متخصصة أكثر نوعًا من الرفض rejection من ناحية الجسم الجديد للمخ المزروع فيه ، فكما يرفض الجسد مثلا كُلية جديدة أو كبدًا جديدًا عن طريق جهاز المناعة ، يرفض أيضًا المخ الجديد عن طريق ألاعيب اللاوعى .. كالأحلام .. الرؤى .. الهلاوس .. الضلالات .. إلى آخره ..

والتقط أنفاسه قبل أن يتابع :

ـ أطلقنا على الظاهرة تعبير Flash Back Phenomenon ، والفلاش باك بلغة أهل السينما كما تعلمين هى المشاهد التى تعترض مسار الأحداث الطبيعية من أجل أن تنقل لك مشهدًا حدث فى الماضى ، وهو نفس ما يحدث هنا .. يتعرض الزبون بعد أن ينتقل مخه إلى الجسد الجديد لرؤية أشياء لا تمت لتاريخه هو بصِلة ، وإنما تتعلق بتاريخ صاحب الجسد الذى يحتله الآن .. أعتقد أنك تعرضتِ لشىء كهذا سواء قبل تلقيك الشريط من ناحيتنا أو بعدها ..

قلت والدم يندفع إلى رأسى ، ويندفع :

ـ كنتُ إذن مجرد فأر تجارب بالنسبة لكم ..

ـ خدمة فى مقابل أخرى .. لا تنسى أننا منحناك صك العودة إلى الشباب والاستمتاع بالحياة من جديد ..

صحت فى سخط :

ـ لا أريد شبابكم هذا ، ليتكم احتفظتم به وتركتمونى لحالى !

قال وبسمته الثلجية تضاعف من حنقى :

ـ عقارب الساعة لا ترجع إلى الوراء أبدًا يا عزيزتى .. هذا ليس ممكنًا أبدًا ..

تنهدت بعمق ، وركزت تفكيرى فى أمر واحد :

ـ أريد رؤية الطفل .. (كازين) ..

ـ سترينه بالتأكيد ، إنه جزء أساسى من التجربة .. نريد أن نعرف كيف ستشعرين حيال رؤيته ، هل ستتصرفين كأمه فعلا ؟! هناك عدة عوامل متداخلة مثل أن (كاسيا) هى والدته الحقيقية فى حين أن (عصمت) مثلا لم ترزق بأبناء طوال عمرها .. السؤال هو : ما الذى يمكن أن ينتج من خلط مشاعر (كاسيا) و(عصمت) فى هوية (جيسيكا) الجديدة ؟! انجذاب نحو الطفل أم نفور منه ؟! ما رأيك أنت ؟!

ركزت تفكيرى فى أمر واحد :

ـ أريد رؤية الطفل ، دكتور (كوارتز) !

ندت عنه ضحكة مبتورة ، قبل أن يهز رأسه يمنة ويسرة ، ثم يقول :

ـ أتعرفين أن الإنسان كائن غريب بالفعل ؟!

يمد الدكتور (كوارتز) يده إلى جيب سترته ويخرج علبة سجائره الفاخرة ..

ـ أحيانًا تكون الأشياء أمام عينيه ، ولا يراها !

يقرب العلبة من فمه ويلتقط السيجارة من داخلها بشفتيه ..

ـ ولأنه عنيد فربما يرفض عقله تصديق أمور بديهية فقط لأن عقله المحدود لا يستوعبها ..

يشعلها ويأخذ نفسه الأول ، ثم يضعها بين إصبعيه الخنصر والبنصر ..

ـ وأحيانًا تضع الرغبة غشاوة على عينيه ، فتعميه عن الرؤية ..

وينفث عامودًا رأسيًا من الدخان الأبيض ينم عن مدى اتساع رئتيه ..

ـ ما رأيك أنت يا (جيسيكا) ؟!

وعن انغماسه العميق فى نشوة النيكوتين ..

ـ أم أقول ، يا عزيزتى (عصمت) ؟!

ـ (نعمان) ؟!

كلا ، هذا كثير .. كثير حقًا ..

* * *

(عندما سحب (نعمان) سيجارته من جيب معطفه الأبيض فى منتصف فترة الامتياز لينفث دخانها فى عامود من الهواء الرأسى ، كنت موقنة أن عبارته التالية سوف تكون السؤال المنتظر :

ـ (عصمت) ، هل توافقين على الزواج منى؟

وبالطبع وافقت ..)

* * *

(أخرج (نعمان) إحدى سجائره وبدأ فى تدخينها بطريقته المميزة التى لم تتغير طوال خمسين عامًا ..)

* * *

(ذهبت أيام المجد لكنها قد تعود ..)

* * *

(تأتى الورود وتبقى حتى تذبل ، تأتى بلا بطاقات ، باقة يومية وحيدة لا أهتم بالسؤال عن صاحبها ، ليكن من يكون فالمهم هو الحقيقة ..)

* * *

(سأراك ثانية يا (عصمت) .. سنتقابل مرة أخرى ، لا تقلقى ..)

* * *

(وفى الشرفة (نعمان) وحيد غارق فى تأملاته وفى نفث أعمدة الدخان بينما السيجارة تلو الأخرى تهتز بين خنصره وبنصره ..)

* * *

(لمحت علبة السجائر الفاخرة فى جيب سترته لكنى لم أهتم ..)

* * *

(سأكون بجوارك ، فلا تقلقى !)

* * *

يبتسم (كوارتز) ويحدثنى بلهجة مصرية صميمة أميز فيها أسلوب (نعمان) المميز جدًا :

ـ ظننت أن حياتى الجديدة لن تجعلك أنت بالذات تنخدعين فى هويتى ، لكن لقائى بك فى المستشفى يوم توقيع العقد جعلنى أوقن أننا هنا نصنع معجزات حقيقية بالفعل !

عجزت عن تحريك لسانى ، وامتدت يدى رغمًا عنى إلى جيبى الواسع ، بينما (كوارتز) أو (نعمان) ـ أيهما أقرب ـ يتابع :

ـ ظننت أن اسمى الجديد قد يكشف هويتى ، فهَوَسى بالقطط جعلنى أقتبس اسم القط المفضل للرئيس الأمريكى السابق (ثيودور روزفلت) ، لكن ظنى لم يكن فى محله .. يبدو أن هذا القط لم يكن بالشهرة التى تصورتها رغم أن اسمه مأخوذ عن قط آخر له دور رئيسى فى إحدى قصص (مارك توين) .. لقد فتنتنى القصة عندما قرأتها إبان بعثتنا فى (أمريكا) ، واقتنصت فرصة توفر (حياة جديدة) حتى أعيش حياة لورد بريطانى يحمل اسم قط أمريكى ، إن هذا يناسب مزاجى حقًا !

غمغمت فى حقد وأنا أدس يدى فى جيبى :

ـ أنت إذن من صنع بى كل هذا .. أنت يا (نعمان) !

لوح بكفيه قائلاً كأنه يدافع عن نفسه أمام هيئة محلفين :

ـ لم أدفعك إلى فعل أى شىء قسرًا ضد إرادتك الحرة يا عزيزتى .. لقد أخفيتُ عنك حقيقةَ قيامى بتجربة مماثلة لغرض علمى بحت .. لم يكن من الممكن أن أتلقى عرضًا كهذا والسرطان يأكل رئتى ثم أرفض ، خاصة وأننى من الأعضاء المؤسسين

لبرنامج (حياة جديدة) منذ البداية .. فما لم أخبرك به أن أبى لم يترك لى وديعة واحدة ، وإنما اثنتين .. واحدة ساهمت بها فى رأس مال المؤسسة وأصبحت عضوًا فى مجلس إدارتها ، والثانية منحتها لك عن طيب خاطر لتبعثرينها كيفما تريدين ، وأنت تبلين فى ذلك بلاء حسنًا بالفعل .. أنتِ لا تتصورين أننى عشت حياتى الأولى كطفيلى لا يهتم بأى شىء كما أتصور ..

دون أن أشعر أخرجت المسدس من جيبى وصوبته إلى رأس (كوارتز) ، أو (نعمان) ..

أيهما أقرب !

ـ لو قتلتك الآن فلن تحظى بفرصة الحياة إلا فى عالم آخر ..

قلتها نافثة بخار غضبى المكتوم منذ سنوات بعيدة ، لكن شعرة واحدة لم تهتز فى رأس (كوارتز) الأصلع ، وهو ينظر نحوى قائلاً :

ـ ألا تريدين رؤية الطفل أولا ؟!

ثم إنه صفق بيديه ، لتخرج من باب جانبى امرأة شقراء تمسك فى يدها بيد طفل يناهز عمره العامين تقريبًا ..

كان الطفل ينظر إلى كل شىء بعينين آسيويتين ذاهلتين ، تحمل ملامحه الكثير من تفاصيل وجهى ، ووجه (ميور) ، وقد أفقدنى مرآه توازنى ، فارتعش المسدس فى يدى ، قبل أن يسقط على

الأرض ، ولم أدر بنفسى إلا وأنا أهرع نحوه ، وأضمه إلى صدرى بقوة ، وأوسعه تقبيلا فيما تبلله دموعى وتلفح وجهه شهقاتى العميقة ..

قال (كوارتز) / (نعمان) وهو ينحنى ممسكًا بالمسدس الساقط فوق الأرض :

ـ واضح أن رد الفعل إيجابى بدرجة خارقة ..

انتبهت أخيرًا إلى الكاميرا المثبتة فى ركن السقف ، والتى تصور كل ما يجرى ، فنهضت بجوار الطفل محاولة التماسك وأنا أمسح دموعى بكفى ، ودون أن أفلت يده نظرت إلى المسدس الذى يشهره (كوارتز) / (نعمان) الآن فى وجهى ، وتساءلت :

ـ الآن ماذا ؟!

هز كتفيه ، وقال فى بساطة أدهشتنى :

ـ لا شىء ، أنت حرة فى الخروج من هنا حاملة الطفل معك لتكملى مسيرة الحياة الجديدة التى بدأتها فعلاً ..

كنت أنظر إلى ماسورة المسدس المشهر فى وجهى بخوف بيّن ، فسارع يقول :

ـ بالنسبة للمسدس فلا تخشى شيئًا ..

وفتح خزانة الطلقات أمامى :

- إنه غير محشو كما ترين !

الدهشة فى عينى جعلته يفسر :

- هل كنتِ تظنين أنك قد عثرتِ عليه داخل غرفة الكواليس بالصدفة ؟! ألم أخبرك أننا نقوم بدور المخرج هنا على خير ما يرام ؟!

أدار ما يقوله عقلى ، وتخيلت للحظة أننى كان من الممكن أن ألاقى نفس مصير (ليلى) : ركلة فى الوجه ، فقدان وعى ، وربما الموت .. مرة أخرى !!

لم تقو أعصابى على تحمل المزيد ، فانحنيتُ أحمل الطفل على ذراعى ، وكنت مستعدة للمغادرة عندما قال (كوارتز) / (نعمان) مشيرًا إلى الشقراء التى خرجت بالطفل :

- ألا تريدين قبل أن تغادرى لقاء صديقة قديمة ؟!

نظرتُ إليها وتعرفت على ملامحها رغم ابتعاد الزمن :

- (جيسيكا) ؟!

هزت الشقراء رأسها أن نعم وقالت بلهجتها الأمريكية :

- كيف حالك يا (عصمت) ؟! أم تفضلين اسم (جيسيكا) أنتِ الأخرى ؟!

وانطلقت كلمات (نعمان) تخترق ظهرى كرصاصات قاتلة :

- (جيسيكا) زميلة البعثة القديمة كانت بوابة عبورى إلى عالم (حياة جديدة) .. أعتقد أن كلينا يجب أن يكون ممتنًا لها الآن يا عزيزتى (عصمت) بالقدْر نفسه ..

لا أذكر أننى كرهت حياتى أبدًا ، بالقدر الذى كرهتها فيه ، خلال هذه اللحظة المميتة !

* * *

فى سيارة الأجرة التى أقلتنى إلى الفندق كنت أحتضن (كازين) النائم بعمق ، وقد وجد السكينة فى أحضان أمه أخيرًا ، والدموع لا تفتأ تسيل من عينى ثم تتوقف ، تسيل ثم تتوقف ، حتى توقفت بنا السيارة ، وهبطت منها حاملة طفلى الوحيد إلى غرفتى بالأعلى ..

وكان باب الغرفة مفتوحًا ، مما أثار توترى مجددًا ودفعنى إلى حالة الاستنفار القصوى ..

فى الداخل كان (كومار) مستلقيًا على الأرض ، مضرجًا فى دمه ، يلفظ أنفاسه الأخيرة ويشير نحوى بيديه ، فوضعت طفلى النائم على السرير وجثوت جواره فى هلع ..

يبدو أن الليلة لا تريد أن تنتهى على خير ..

- ما بك ؟! من فعل هذا بك يا (كومار) ؟!

قلتها وأنا أحاول وقف الدماء النازفة من جرح فى صدره ، لكنه كان عميقًا بما يكفى ، وقد مر عليه وقت طويل جعل فقدان الحياة

مسألة وقت فحسب ، نبض الشريان السباتى فى العنق هو الذى يقول لا أنا ..

لهث (كومار) قائلاً والعرق يرسم مسارات متعرجة على وجهه :

ـ اسمعينى جيدًا .. لا يوجد وقت .. (ميور) و(نجم الدين) هما من فعلا بى هذا .. كانا هنا يريدان النيل منك وسرقتك ، وكنت أنا هنا لسوء حظهما فتشاجرنا وفعلا بى ما فعلا ثم فرا هاربين ..

الوغدان !

ـ يجب أن أطلب لك الإسعاف فورًا ..

ـ لا يوجد وقت ، الشرطة فى الطريق .. أحد النزلاء رآنى قبل حضورك بعدة ثوان ، ولابد أن الإدارة فى طريقها إلى هنا الآن .. لذا ، اهربى على الفور حتى لا تورطى نفسك فى المتاعب ..

سألته فى ألم :

ـ وما الذى جاء بك أنت إلى هنا ؟!

لاهثًا قال :

ـ حظى العاثر .. جئت أقبل مساعدتك بعد أن فصلونى من هنا ، لكن القدر أبى أن أتخلى عن كرامتى للمرة الأخيرة قبل أن .. قبل أن ...

ألم .. ألم رهيب يحرق صدرى بنيران متوحشة ..

ـ اهربى .. اهربى يا (كاسيا) .. هيا قبل فوات الأوان .. اهربى من أجل الطفل ..

تراجعت ، وألقيت على (كومار) بنظرة أخيرة ، قبل أن أحمل طفلى على كتفى وأهرول خارج الحجرة ، وفى نفس اللحظة التى انغلق فيها علىّ مصراعا المصعد ، كان المصعد المجاور ينفتح عن جيش من إداريى الفندق والقائمين على أمنه ..

هرولت خارج الفندق كله ، لا أدرى إلى أين ، ومن بداية الشارع ارتفع صوت أبواق سيارات الشرطة ..

أين أذهب ؟!

أين ؟!

فى اللحظة التالية أتانى الجواب ، عندما توقفت بجوارى تمامًا سيارة (مرسيدس) من أحدث طراز ، مقودها على جهة اليمين ككل السيارات هنا فى (ماليزيا) ، وقد انفتح بابها الأيسر بغتة ، ليدوى من داخلها الهتاف بالعربية :

ـ هيا ، اركبى ..

بكل الفزع الذى يعتمل فى داخلى ، وبكل الشك الذى يتعاظم فى أعماقى تجاه العالم كله ، انحنيت ناظرة إلى الداخل :

ـ من أنت ؟!

ـ شخص لا يريد إلا مساعدتك .. اركبى ..

اقتربت أبواق الشرطة ، وفكرت أنه ليس أمامى حل آخر بالطفل الذى أحمله ، فدسست جسدى الضئيل داخل السيارة التى انطلقت بكل سرعة ..

نظرتُ إلى سائقها ، وحاولتُ استجلاء ملامحه :

الرأس الحليق تمامًا ، الأنف الحاد ، الرموش الطويلة ، الفم الصغير ، والشامة البنية الصغيرة المستديرة فوق خده الأيسر المواجه لى ..

قال لى بصوته الرجولى ، وبلهجته المصرية الصميمة :

ـ حسنًا فعلتِ بركوبك الآن دون نقاش ، لقد اختصرتِ على مسافة طويلة من محاولات التقرب إليك !

عنّ لى الخاطر فجأة :

ـ هل أنت منهم ؟!

ابتسم سائلا :

ـ تعنين .. (حياة جديدة) ؟!

هو منهم إذن !

ـ فى الواقع ، هناك علاقة ما تربطنى بهم .. لكنها ليست العلاقة التى تجعلنى واحدًا منهم بكل تأكيد .. علاقتى بهم مثل علاقتك بهم تمامًا ..

ثم إنه تنهد قائلاً فى أسى ، وهو ينعطف بسيارته إلى طريق جانبى يخرج بنا من قلب العاصمة الماليزية :

ـ إننى أحد ضحاياهم !

هتفت فى دهشة :

ـ حقًا ؟!

ـ أجل ..

ثم إنه التفت إلىّ مواصلاً :

ـ أدعى (ميلاد) .. (ميلاد فريد(*)) ؟

(★) هو بطل الجزء الأول من رواية (حياة جديدة) ، الصادرة فى سلسلة (سلة الروايات) ، العدد رقم (٢١) ..

★ ★ ★

(٣)

السيارة الفارهة تقطع الطريق الخالى بنا تحت سماء الليل التى بدأت تُمطر ..

على الجانبين حقول وأشجار وتلال معشوشبة يكسوها رداء الظلام والسكينة ، وأنا أحتضن (كازين) ؛ الملاك النائم ، بينما (ميلاد فريد) يروى لى قصته باختصار ..

كان اسمه (فايز أبو اليزيد) ، وكان مليارديرًا مصريًا تجاوز التسعين لا يقوى على الحركة منفردًا ، ويعيش على أدوية ما من فائدة ترجى منها إلا السماح له بالموت دون ألم ، نقلتْ مؤسسة (حياة جديدة) مخه إلى جسد شاب فتىً موفور العافية ، ليكتشف أن هذا الشاب لم يكن سوى قاتل مأجور محترف اسمه (ماركو) ، وأن المنظمة التى كان يعمل لحسابها تطارده وتطالبه بدفع ثمن أخطاء ماض ملطخ لم يرتكبها ، وهو الآن مطارَد من قِبَلهم ومن قِبَل العدالة ، يملك مهاراتٍ لا يعلم كيف اكتسبها ، وتطارده الأحلام الليلية لوجوه تصرخ ، وطلقات تنهمر من كل حدب وصوب ، ودماء تغرق أماكن لا يعرفها ، وهو يحاول التعايش مع واقعه الجديد كشخص ثالث ، ليس (ماركو) ، وليس (فايز) ، وإنما (ميلاد) ..

(ميلاد فريد) !

أسأله والسيارة تنعطف بنا عن الطريق الرئيسى إلى آخر جانبى غير معبّد :

ـ وكيف عرفت بأننى ضحية لهم ؟! كيف عرفت قصتى واستطعت الوصول إلى مكانى ؟!

يبتّسم هازًا رأسه فى غموض ، ويقول :

ـ لا تتعجلى ، ستعرفين كل شىء فى الوقت المناسب ..

أقول فى عناد :

ـ بل الآن .. أريد أن أعرف كل شىء الآن ..

يقول فى غموض أكبر :

ـ انتظرى فقط حتى نصبح معلقين فى الهواء ..

الهواء ؟!

ماذا الذى يعنيه هذا بحق الـ ...؟!

فى الثانية التالية فهمت كل شىء ، عندما ظهر أمامنا على جانب الطريق بناء خشبى صغير ، أمامه تربض طائرة صغيرة من ذوات المقعدين ، وقد استدار مقود (ميلاد) نحوها ، لتقف السيارة على مقربة منها ، ويفتح (ميلاد) الباب ليضىء مصباح سقف السيارة ..

ـ هيا بنا ..

أقول فى ريبة ، غير مستبعدة أن يكون الأمر لعبة أخرى من ألعاب المؤسسة :

ـ إلى أين ؟!

ـ إلى مكان أكثر أمنا من (كوالا لامبور) ، بالنسبة لك على الأقل ..

فهمتُ ما يعنيه ، وبعثت بسمته الطمأنينة فى أعطافى ، خاصة عندما خلع معطفه ، وغطى به رأس الطفل متابعًا :

ـ حتى لا تبلله الأمطار ..

هبطنا من السيارة ، وكدت أتوجه نحو الطائرة عندما استدار (ميلاد) إلى حقيبة السيارة هاتفًا بى :

ـ ألا تريدين إلقاء نظرة أخيرة على شخص من حياتك القديمة ؟!

شخص ؟!

حياتى القديمة ؟!

من ؟!

أيكون ...؟!

خففت السير إليه وقدماى تغوصان فى الأوحال ، وإذ فتح (ميلاد) حقيبة السيارة الخلفية ، فهمت ما يعنيه على الفور ..

هتفت وأنا أشهق :

ـ (خالد) ؟!

كان الدكتور (خالد) مقيدًا فى حقيبة السيارة ، على وجهه كدمات وجروح ، ويبدو غائبًا عن الوعى ، أو ...

ـ ليس ميتًا ، هو مخدر حتى الصباح فقط !

قالها (ميلاد) وهو يحدق فى وجهه ، وسألته وقطرات المطر تعشى عينى :

ـ هكذا عرفتم الطريق إلى إذن ؟!

ـ كما أخبرتك ..

وأعاد غلق الحقيبة ليسير أمامى ، ويتابع :

ـ ستعرفين كل شىء عندما نحلق فى الهواء ..

أشرت إلى الحقيبة المغلقة :

ـ وسنتركه هنا ؟!

أتانى هتافه دون أن يلتفت نحوى :

ـ ستكتشف الشرطة وجوده فى الصباح عندما يصلهم بلاغ وجود السيارة وحيدة هاهنا .. هناك ثقب فى الحقيبة يكفيه للتنفس إن كنت تخشين عليه من الاختناق !

ولم يكن أمامى إلا أن أتبعه ..

قطعنا الطريق إلى الطائرة تحت سيول السماء المشتدة ، وعندما جلستُ داخلها إلى جوار (ميلاد) سألته عندما رأيت يديه تعبثان بالأزرار ، وتثبّتان جهاز اتصال فوق أذنيه :

ـ أنت الذى ستقود الطائرة ؟!

قال باسمًا :

ـ ألم أقل أنى أملك مهارات لا أعلم كيف اكتسبتها ؟! هذه إحداها !

هزم الرعد مدويًا فى السماء ، فقلت فى قلق وأنا أراقب انهمار المياه فوق الزجاج الأمامى :

ـ فى هذا الطقس المخيف ؟!

قال والطائرة تتحرك بالفعل :

ـ لقد اعتدت على التحليق فى أجواء أكثر سوءًا ، اربطى الحزام وتمسكى بالطفل جيدًا فحسب ..

امتثلت بأمره ، وأغمضت عينى فى محاولة لتمالك نفسى ، حتى حلقت بنا الطائرة بالفعل على ارتفاع منخفض ، وأخذ الجو فى التحسن كلما اخترقت بنا الطائرة الهواء إلى الأمام ، فشعرت ببعض التحسن ، واستدرت أسأل (ميلاد) :

ـ إلى أين ؟!

قال ببسمة لها مغزى :

ـ منطقة فى قلب (آسيا) !

صحت فى انفعال :

ـ مؤسسة (حياة جديدة) ؟!

ضحك قائلاً :

ـ ليتنا نعرف مكانها الفعلى ، إذن لما بقى لها على سطح الأرض من أثر .. لكننا نعمل على الوصول إليها ، سيستغرق ذلك بعض الوقت لكننا نعمل بجد حقيقى ..

ـ تعملون ؟! تعرفون ؟! عمن تتحدث بصيغة الـ (نحن) ؟!

نظر نحوى ، وأجابنى فى اقتضاب :

ـ الأشباح !

أخافتنى اللفظة ، فغمغمت أحاول ترديدها :

ـ الـ .. ماذا ؟!

عاد يضحك ، ويقول :

ـ إنها الصفة التى أطلقناها على أنفسنا ، نحن ضحايا مؤسسة (حياة جديدة) ..

ثم إنه استطرد :

ـ تعرفين أن (حياة جديدة) مؤسسة دولية ، ذات فروع ومندوبين فى كل بقاع العالم .. ضحاياها متناثرون فى كل مكان تقريبًا .. وقد عرفنا كيف نجد بعضنا فى العاصفة ونتكاتف من أجل الوقوف ضد هذه المؤسسة الملعونة .. هدفنا الأساسى هو الوصول إلى مركزها وإبادته تمامًا ، كنوع من التطهر الذاتى والتكفير عما ارتكبه كل منا فى حق فطرته الأصلية كإنسان ، ولإيقاف توغلها أكثر فى سبيل الحد من عدد ضحاياها .. إن زبائن المؤسسة أغنياء ، يملك كل منهم ثروة طائلة يستطيع عن طريقها دفع أجر عملية نقل المخ المكلفة .. وهكذا قررنا أن نتحرك فى نظام ، أنشأنا لأنفسنا مقرًّا سريًّا فى قلب (آسيا) نقلنا إليه إقامتنا وجهزناه بكل وسائل التعقب وتكنولوجيا الاتصالات الحديثة حتى نتتبع آثار المؤسسة فى جميع الدول .. لدينا طاقم كامل من الموظفين المخصصين لهذا الشأن ، وأحدهم كان مكلفًا بتعقب قصتك أنت بالذات ، عندما استطعنا الاستدلال على عمل الدكتور (خالد) كمندوب فى (مصر) ، وعن طريق اصطياده من مؤتمر (كوبنهاجن) ثم استنطاقه بوسائلنا الخاصة ، وعرفنا مكانك فى (كوالا لامبور) ، وتصديتُ لمهمة إحضارك إلى مقرنا بصفتى مواطنًا من دولتك .. سيعجبك مقرنا ، أنا واثق من هذا ، إنه أشبه بمنفى جميل ، يجتمع فيه البائسون الذين أفسدوا حياتهم بأيديهم ، مثلى .. ومثلك !

عدت أغمغم ، وأنا أغمض متأملة سارحة فى ملكوت الله :

ـ أشباح .. فى المنفى !

ضحك (ميلاد) مرة ثالثة ، قبل أن يقول :

ـ أجل ، نحن أشباح بالفعل ..

وغاضت البسمة فى سيل من الحزن الجارف ارتسم على محياه إذ أردف :

ـ لا نستحق وصف الأحياء ولا نحن بالموتى .. نقف على برزخ يفصل ما بين حياة وموت .. نعيش على هامش هذا العالم .. موجودون وغير موجودين .. لكل منا هويتان قديمتان ، وواحدة جديدة .. نستحق أن نعزل أنفسنا عن الآخرين كمرضى ، لكننا نعمل من أجل هدف واضح ومحدد .. القضاء على من فعلوا بنا ذلك .. وأنتِ ـ شئتِ أم أبيتِ ـ واحدة منا .. واحدة من أشباح المنفى ..

هكذا يتضح المصير أمام عينى ، ويتوقف المطر المنهمر فى الخارج مع تباشير الفجر الأولى التى تبزغ من خلف أفق الجبال والسهول والمروج والبحيرات وأسراب الطيور المهاجرة ..

هكذا يتضح المصير الذى قررته لنفسى ..

وهكذا أستطيع أن أرى المنفى الذى يتحدث عنه (ميلاد) مشيرًا بسبابته إلى الأسفل :

ـ هاهو ذا ..

مبنى كبير أبيض اللون ، مسقوف بصفائح معدنية وأطباق بث واستقبال ، لا توجد نوافذ أو أبواب فيما عدا بوابة كبيرة وحيدة فى المقدمة ، أمامها عدد من الطائرات والسيارات ، وحول المبنى سور معدنى شائك مرتفع ..

كأنها ثكنة عسكرية خاصة !

ـ مرحبًا بك فى المنفى الاختيارى الذى يجمع كل الأشباح معًا ..

قالها ثم هبطت الطائرة بنا أمام البوابة ، وانفتح البابان إلى أعلى ليقفز (ميلاد) ، ثم مد ذراعيه ليتناول منى الطفل ، الذى بدأ يفيق ويفرك عينيه أخيرًا ..

تجمدت فى جلستى ، قبل أن ألتفت إليه قائلة :

ـ لا أدرى .. إن كنت مستعدة لقبول هذا المصير أم لا ..

هرش (ميلاد) فى رأسه الحليق تمامًا ، وقال :

ـ لقد قبلتِ به فعلا عندما نقلوا مخك إلى جسد الآسيوية الصغيرة ..

هززت كتفى ، وقلت فى عناد :

ـ ربما عدت إلى (مصر) وبدأت حياتى مجددًا كيفما أحب ، ربما بدأتها فى أى مكان آخر من العالم الواسع ..

ـ سيجدك شياطين (حياة جديدة) وسيحيلون حياتك فى أى مكان من العالم إلى جحيم ، كونى واثقة من هذا ..

أشرت إلى المبنى الأشبه بقبر عملاق :

ـ وهنا ؟! أليس العيش هنا جحيم آخر ؟!

قال (ميلاد) فى صبر :

ـ على الأقل ستجدى من يهون عليك ، ويتفهم حالك ، حتى انتهاء المعركة بيننا وبينهم .. وفى كل الأحوال ، الاختيار لك ..

وأعطانى ظهره متابعًا :

ـ يمكنك أن تأخذى أى سيارة من هنا وتعودى ، ويمكننى أن أقلك بالطائرة إلى أى بقعة فى العالم ، لكن .. عليك أن تعرفى ما سيحدث لك ..

واستدار نحوى قائلاً فى لهجة أرعبتنى من فرط صدقها :

ـ لن ينمو جسمك أبدًا ، ستحل عليك لعنة الشباب الأبدى وستبدأ كل الأيام فى التشابه ، لدينا من بين الأشباح من بقى سنه عشرين عامًا لخمس سنوات متواصلة .. هل أنت مستعدة لمواجهة هذا النوع من العقاب السماوى دون التفكير فى الانتحار ؟!

هذا شنيع بالفعل ..

كان (ميلاد) يشير إلى الداخل مواصلاً :

ـ لدينا من بين الأشباح قصص لا يصدقها عقل .. لدينا من استنسخ نفسه وزرع مخه فى جسمه الجديد .. ولدينا من زرع تفاصيل شخصيته فى برنامج واقع افتراضى وظل محبوسًا داخل جهاز كمبيوتر .. ولدينا مخ طفل فى العاشرة مزروع فى جسد مصارع فى ريعان الشباب .. لدينا قصص وقصص ربما أكون أنا وأنتِ أهونها .. لدينا أشباح من (آسيا) و(أوروبا) و(إفريقيا) و(الشرق الأوسط) .. ستسمعين فى الداخل قصصًا يشيب لها الولدان ، عما حدث لكل من رفضوا الانضمام إلينا وفضلوا التمادى فى عنادهم وعيش حيواتهم الجديدة .. والاختيار ما زال لك كاملاً .. فما قولك ؟!

صمت ..

تبادلنا النظرات ، ثم انهال (ميلاد) بذراعيه على جانبيه ، قبل أن يعطينى ظهره قائلاً فى ألم :

ـ رباه ، لم أكن أتصور أن تكونى بهذا العناد .. سأجعل واحدًا آخر يوصلك إلى حيث تريدين ..

ـ (ميلاد) ..

هتفت بها ، فاستدار نحوى بعينين يلوح فيهما أمل أخير ..

ـ أنا شبح آخر ، وسأنضم إلى بقية الأشباح ..

اقترب منى راسمًا فوق شفتيه بسمة تشجيع ، وتناول الطفل ، وقفزت أنا سائرة خلفهما ..

أمام البوابة توقفنا ، وقال (ميلاد) باسمًا :

ـ مرحبًا بك فى منفانا ، أيها الشبح الجديد ..

انفتحت البوابة ، واجتزناها ، ثم انغلقت خلفنا ..

ولف المكان صمت عميق ، مخيف ، وممتد !

* * *

(٤)

عزيزى طارق ..

أكتب لك من مكان ما ، بقعة فى قلب (آسيا) لا أعرف عنها شيئًا !

ربما يبدو ما أقوله عصيًا على التصديق ، لكنى لا أهرب منك صدقنى ، هناك أمور عصية على التصديق أكثر ، ربما لو علمتها لوصفتنى بالخبال ..

ولعلى مخبولة فعلا ، غير أن هذا خارج نطاق اهتمامى حاليًا ، فقد اكتفيت من التفكير فى حالتى العقلية منذ وقت طويل ..

ما دفعنى اليوم للكتابة إليك هو أنى أفتقدك بحق ، أفتقد كل شىء فى منزلى المطل على البحيرة ، أفتقد (أم محمود) و(تمارا) ورائحة البن فى قهوتى المرة ، أفتقد حتى الكلية ومضايقات (مؤمن) ، وأتمنى لو أن الزمن يعود إلى الوراء حتى أرشف رحيق كل اللحظات الحلوة على مهل ، لكن عقارب الساعة لا ترجع إلى الوراء أبدًا يا عزيزى ..

ليس هذا ممكنًا أبدًا ، إنه الدرس الكبير الذى تعلمته بعد فوات الأوان !!

ربما يبدو كل ما أكتبه غامضًا ، لكنى سأكون واضحة معك إلى أقصى حد يسمح به العقل والمنطق : ليس مقدرًا لنا أن نلتقى ثانية يا (طارق) ..

أعلم كم يبدو هذا قاسيًا ، لكنى سأوفر عليك مشقة التفسيرات السخيفة ، وسأكتفى بالتأكيد أن الأمر خارج عن إرادتى تمامًا ..

لو كان بإمكانى أن أختار الآن ، لاخترت ألا نتقابل من الأصل بهذا الشكل ، ولاكتفيت بلقائنا الأول الذى ترك عنك فى نفسى انطباعًا مختلفًا ، وخاطئًا !

ذلك اللقاء الذى لا تعرف عنه شيئًا ، رغم أنك كنت هناك يا عزيزى !

تخاريف ؟!

إليك المزيد من التخاريف إذن :

أنا الآن أعيش حياتى فى مكان مغلق وسط أشباح آدمية ، غير مسموح لنا بالخروج ، فقط نلتقى فى الليالى الطويلة ليروى كل منا قصته وسط العبرات وعبارات التعاطف والتشجيع ، ورغم كونهم أشباحًا إلا أنهم غير مخيفين على الإطلاق ، إنهم مجرد مساكين وبؤساء دفعهم الاختيار الخاطئ إلى هنا ، مثلى تمامًا !

مزيد من التخاريف ؟!

هناك طفل يؤنس وحدتى وتلتهم رعايته أغلب وقتى ، يحمل وجهى بعض ملامحى ، ويناديني الآن بـ (ماما) ، ورغم أنى قد أكون أمه فأنا واثقة فى نفس الوقت أنى لست أمه ، فى الحالتين أنا سعيدة بوجود قيمة حقيقية لحياتى مع هذا الطفل ، كل همى الآن أن يكبر وأن أراه فى مثل سنى ، فلو قدر لى أن أعيش فسأبقى فى هذه السن ، وربما نصبح ـ أنا وهو وقتها ـ أصدقاء !

لو أردت المزيد فهناك المزيد حتمًا ، لكنى أربكتك بما فيه الكفاية حسبما أظن ..

كل ما سأطلبه الآن أن تهتم بـ (تمارا) ، وأن تعطى (أم محمود) و(جلال) أجريهما فى بداية كل شهر كما كنت أفعل ، فمع هذا الخطاب سوف يصلك منى شيك بمبلغ كبير من الدولارات أضعه تحت تصرفك ، وأتمنى أن تحسن التصرف فيه حقًّا يا عزيزى ..

أخرِج تبرعات فى أوجه الخير ، لا تبخس عامل أجره ، ادفع للمحتاجين والمرضى حتى يكتب الله لى ولك حسنات بما نفعل ، ولو قررت أن تنفق فى سبيل فنك فلا بأس ، أنا واثقة أنك ستعرف كيف تصنع فنًّا راقيًا يليق بطموحك وأخلاقياتك ..

لكل شىء نهاية ، وخطابى قد وصل إلى نهايته ..

ربما كتبت لك مرة أخرى وربما لا ، توقع أى شىء من مخبولة مثلى ..

فى أمان الله ، يا عزيزى (طارق) ..

جيسيكا ..

* * *

قرأ (طارق) الخطاب للمرة الألف ، محاولاً أن يفهم من بين سطوره ما خفى عنه دون أن يستطيع ، فأنزل الجيتار من على قدميه ، وخرج إلى شرفة غرفة النوم ليعيد قراءته مرة أخرى وأخرى ..

كانت (تمارا) تموء متمسحة فى ساقه وهو واقف عند الشرفة وقت الغروب ، بينما (أم محمود) تمسح شرفة الطابق السفلى المطلة على البحيرة ..

وفى الأفق ، كان النورس الوحيد يلقط رزقه من مياه البحيرة ، نائحًا ببكائيته الأثيرة ..

انحنى (طارق) ليربت بكفه على ظهر (تمارا) ، وقال باسمًا :

ـ لقد طلبتْ منى أن أهتم بكِ ، ولن أستطيع إخبارها أننى أفعل دون طلب منها ..

أفلتت الريح أصابعه القابضة على الرسالة عند حافة سور الشرفة ، فطارت الورقة فى الهواء ..

بعيدًا .. بعيدًا ، وعيونه تتابعها ..

حتى انطرحت فوق صفحة الماء ، وتوحدت معها ، ثم بدأت تغوص إلى القاع فى بطء ..

عميقًا .. عميقًا .. عميقًا ..

* * *

[تمت بحمد الله]

روايات مصرية للجيب

سلة الروايات

فى كل رواية متعة دائمة !!

حياة جديدة 2

د. محمد سليمان عبد المالك

لا نستحق وصف الأحياء ولا نحن بالموتى .. نقف على برزخ يفصل ما بين حياة وموت .. نعيش على هامش هذا العالم .. موجودون وغير موجودين .. لكل منا هويتان قديمتان، وواحدة جديدة .. نستحق أن نعزل أنفسنا عن الآخرين كمرضى، لكننا نعمل من أجل هدف واضح ومحدد .. القضاء على من فعلوا بنا ذلك .. وأنت - شئت أم أبيت - واحدة منا .. واحدة من أشباح المنفى ..!

الثمن فى مصر ٣٠٠ قـ
وما يعادله بالدولار الأمريكى فى سائر الدول العربية والعالم

المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة والإسكندرية

٢٠٠٥/١٢/٢٥